

طه عبد الباقي سرور

التصوف الإسلامي والأمام الشعراي

عنتم البيع والنسب

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

مطبعة نهضة مصر بالبحر الأحمر

القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الطبعة الثانية

منذ خمسة عشر عاماً ، وهذا القلم ينطلق على أجنحة من هدى الله وتوفيقه ، ليخلق في سموات التصوف وآفاقه ، يقتبس من كل نجم ، أبهى أشعته ، ومن كل زهر أظهر غيره ، ومن كل لحن أسمى أنغامه ، ويمزج الطهر بالخير ، والنور بالعطر ، والشعاع باللحن ، والجمال بالإيمان ، ثم يتجلى رضا الله ، فتتحول كل هذه المبهجات ، إلى كلمات مؤنسات مشرقات ، تنضج بالحياة ، وتنضج بالقوة ، وتقدم زادا روحياً ، للقلوب المفتحة ، ونعماً علوياً للأرواح العابدة ، ومنهاجا وضاء هادياً لخير أمة أخرجت للناس .

منذ خمسة عشر عاماً ، كان مولد هذه الدراسات الصوفية التي تناهت أجزاؤها ، وتماسكت حلقاتها ، واتحدت لبناتها ، في سبيل السمو والشموخ بالصرح الصوفي الذي تترقبه القلوب العابدة ، وتأمل أن يكون حصناً من حصون الإيمان ، ونقطة ارتكاز قوية للوثة الإسلامية الكبرى .

وشاءت عناية الله - ونحن أرقاء هذه العناية - أن يستقبل العالم الإسلامي هذه الدراسات استقباله لأضواء الفجر ، وقطرات الغيث ، فنفتت طبعتها سراعاً ، ولا يزال الحب يطالب بها ، ويلج عليها ، ويسر الله جل جلاله . فأعيدت طبعات كتابي (الغزالي) و (محي الدين) وهما هي ذى الطبعة الثانية من « التصوف الإسلامي » والإمام الشعراي ، محررة منقحة مضافاً إليها زيادات وتعقيبات لم تيسر لنا في الطبعة الأولى ، نقدمها لعشاق التصوف والروحانية الإسلامية ، شاكرين غفورين ، وما توفيقنا إلا بالله رب العالمين . وهذا الكتاب هو واسطة العقدم هذه الدراسات فقد تميز بمنهج كاملة

للتصوف وأهدافه ورسالاته ، وما يحمل بين أجنحته من خير وهدى ورحمة
لللّو قين .

كما عني عناية كبرى بتنقية التصوف من كل ما نسب إليه ، ودس عليه
من مذاهب فلسفية ، ودجلية شعبية ، مما امتلأت به حقائب التاريخ
وقاضت به صحف المغرضين والخوانهم .

إنه لصورة كاملة للثروة الصوفية الضخمة ، صورة صادقة لأقوى
روحانية عالمية مشت بين الناس ، بالسلام والجمال ، والخير والحب ، واليقين ،
المشرق المبين .

ولقد جاءت هذه الطبعة الجديدة في ميقاتها الذي أراده الله ، جاءت لتكون
رداً حاسماً على هؤلاء الذين أمسكوا بمزمار إبليس وراحوا يريقون السحر
الخادع المضلل هنا وهناك ، لينالوا من التصوف والمنصوفة ، ولينسفلوا إلى
مناثر الإيمان محطمين مدمرين .

هؤلاء الذين ملؤوا أفواههم بكلمات كأنها رؤوس الشياطين غلظة
وبشاعة ، يحاولون أن ينفثوا الصرخ من أساسه ، ويحطموا المحراب على
على الساجدين العابدين .

لقد أمسكوا وحدهم برحلة الله ، ويديمون الجنة لأنصارهم ، والظلمى
والكفر والمروق لغير الساجدين على عتبات من يسجدون لهم ، كل شيء بدعة ؟
وكل شيء ضلالة ؟ وكل تسيحة جحود ، وكل تكبيرة مروق ، إلا تكبيراتهم هم ،
حيث يحلو لهم التكبير والتهليل .

ولن نقف طويلاً مع خصوم التصوف التاريخيين ، لقد صاحوا حتى
شقت حناجرهم عبر القرون ، ثم ذهبوا قبضة من رماد ، وصيحة من شيطان ،
ذهبوا إلى الفناء . وبقي التصوف بمنابر ومناثره ، ومواجيده وخوانه ، يرشد
الناس إلى ربهم ويأخذ بأيديهم إلى الحياة الصاعدة الطاهرة .

ولست أدري كيف تكون الحياة ، لو خلت من ذلك الإيمان الصوفي القوي الحار ، الذي يملأ سموات الوجود بلحان الحب ، وموسيقى السلام ، وروثات الأرواح ، وأشواق القلوب .

إن المتصوفة لعمالة بين أقزام ، عمالة في جهادهم لأنفسهم ، عمالة في أسلوب حياتهم ، وألوان تعبداتهم ، ومثالياتهم المجدبة المتعالية .
وحسب النهج الصوفي أن الله جل جلاله خلده في قرآنه خلوداً لا يدنو منه الفناء .

، وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، وأتبع هواه وكان أمره فرطاً .
تلك هي حجتنا ، وهذه آيتنا .

وبعد . . . ترى هل ذهبنا بعيداً ، ونحن نقدم كتابنا ، إن الدفاع عن التصوف لهدف من أكبر أهدافنا ، وعلى هذا الضوء تكون تلك الكلمات مقدمة طبيعية بين يدي التصوف الإسلامي ، والامام الشعراي (.
وتبارك رب العزة القائل ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . .
ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ،

طه عبد الباقي سرور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآفاق الأعلى

الشعراني هو آخر نجم بزغ في الآفاق الأعلى ، الآفاق الأعلى للتفكير الاسلامي ، والنهج الصوفي .

واقدر درج التصوف مع الاسلام منذ يومه الاول ، أفقا خاصا للقلوب المتصدعة من خشية الله ، المتفجرة البنايع بحبه ونجواه وسماها مجلوة للعقول السابحة في عجائب الكون ، المفكرة في ملكوت السموات والأرض ، وما فيها من آيات للدوقين ، العقول التي أودع فيها المهيمن نور الحكمة ورزقها جلاء البصيرة ، وفنوحات العبادة والطاعة ، واتقوا الله ويعلمكم الله .

والقلب المتصدع العابد . والعقل المفكر المؤمن ، والنفس المطمئنة الذاكرة المحبة ، يؤلفون معا ، النفحة العلوية ، المعلبة الملهمة ، التي ترتفع بالإنسان وترفع حتى يكون من الملهمين الربانيين المندرجين تحت أفق قوله تعالى (عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعليناه من لدنا علما) .

ان شئت فسم تلك المثاليات بالتصوف ، أو بالآفاق الأعلى ، وان أحببت فليكن عنوانها نوراانية العبودية ، أو الروحانية الاسلامية .

فالتصوف هو جماع تلك المثاليات ، وهو الذي يرسم الآفاق الأعلى لمن يتسامى . الآفاق الأعلى المشرق بالروحانية الاسلامية ، الآفاق الأعلى الذي تتجلى فيه العبودية الكاملة بأنوارها والهاماتها .

وسبيل التصوف إلى تلك الآفاق ، هو الاستعداد الفطري ، الممثل في الحب الإلهي ، ثم الذكر الدائم ، والخلق الكامل ، والتطوع المتواصل ، لما فوق الفرائض والنوافل .

وفي الحديث القدسي : « فلا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه » . تلك هي مرتبة النوافل وما أدراك ما هي ، ولكن فوقها مرتبة التطوع الدائم ، وهي جعل الحياة كلها ذكرا وعبادة . واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون » . وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .

وافق تلك المرتبة ، مرتبة العبودية الكاملة الأثر المشهور « عبيد أطعني تكن ربانيا تقول للشيء كن فيكون » .

وهذا الأفق جبار المرتقى لا يذل لكل طالب ، فلا يطيقه ولا يصبر عليه إلا صفوة من عباد الرحمن الذين اجنباهم واصطفاهم ، وجعلهم أئمة وهداة وورثة لأنوار النبوة المحمدية . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

وليس ما نقول ضربا من الآشواق الوجدانية والسجات الخيالية ، (فقد روى أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله رجل شاب من الأنصار فقال له النبي صلوات الله عليه ، كيف أصبحت يا حارثة ، قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا . قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة ، قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى فكأنى بمرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار كيف يتعاون فيها قال : أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه . .

وفي رواية أخرى عن محمد بن الحسن ، لكأنى أنظر إلى ربى عز وجل فوق عرشه . يقضى بين خلقه .

ذلك عبد نور الله الإيمان في قلبه — وما أجل وأحلى هذا التعبير النبوى فعاش في الأفق الأعلى ، فتجلت عليه روح الاسلام ، لحاق بأجنحة قلبه النورانية حتى رأى الملكوت الاسنى فشاهد النار والجنة والعرش ثم ارتقى فرأى الله جل جلاله وهو يقضى بين خلقه ، رأى وشاهد تلك الآيات بعين الموقنين ، عين الإيمان القلبي ، وهو يخطر بقدميه على السيار الأرضى .

وقصة الخضر ، العبد الذى ارتقى فاهندى ، فآناه الله من لدنه علماً باطناً ربانياً معجزاً لا يسامقه علم ولا تدانيه معرفة .

ذلك هو التصوف الذى كان له أكبر الأثر في توجيهات العالم الإسلامى الفكرية والتعبدية ، بل أكبر الأثر في فتوحاته وانتصاراته العالمية ، وفي رسم أهدافه ومثله العليا الاجتماعية والخلقية والروحية .

ذلك هو التصوف الذى استحال إلى شخصيات وبطولات ملهمة عبقرية تنفعا مع الجواهر وتقودها فتهدبها وترشدها ، واستحالت تلك البطولات إلى قوة روحية زاحفة مشرقة بالنور فياضة بالإيمان ، تطير بالويرة الاسلام وتزكى شعلته وتحفظ مثاليته ، وتفتح له الآفاق في شتى الميادين العقلية والعلمية .

وهذا هو التفسير الصادق لهذا الحشد الخالد من الشخصيات العجيبة والبطولات الفذة التى حفل بها تاريخ التصوف ، آيات معجزات لا نسمو عبقریات الدنيا إليهم ، ومثاليات تخجل حياتنا حين نتحدث عنهم ، وقوة روحية غلاية ملهمة لم يعرفها تاريخ الإيمان العالمى لسوام .

ولا بد لنا حينها نتحدث عنهم من أن نعقد الصلات بينهم وبين الروح

الصوفي الذي يعد مصدر هذه الطاقة ومشعل نورها وصانع أجنحتها .
ومقياس عظمة كل عبقرية من تلك العبقریات اللدنية هو استعدادها
للترقى في المعارج العلوية ، وطاقتها على تحمل العبودية الكاملة . والحب
الإلهي الفاتح لباب الفيض الرباني .

والباب الموصل لملك المعارج ، هو الاقتداء الكامل والاحتذاء الصادق
الصارم ، بالمثل الأعلى للإنسان الكامل ، بالنبوة المحمدية صلوات الله وسلامه
على صاحبها .

تلك النبوة التي تلقت الفيض كله كاملاً ، واستوعبته واطاقت تلقيه
وصبرت عليه وعاشت له وبه فكانت رمزه الأعلى ، وكانت أفقه الأسمى ،
وكانت معينه الزاخر الفياض ، الذي تكفي قطرة منه لصوغ عبقرى ملهم
من هؤلاء العباقرة الملهمين .

العباقرة الملهمين الذين عاشوا تحت أفق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين عليه
أفضل الصلاة وأتم التسليم كل بقدر ما فيه من استعداد للذلي واستعداد
للاستيعاب واستعداد للصبر والتحمل واستعداد للفيض والاشراق .
وهذا هو السر في فهم المتصوفة واجلالهم للنبوة المحمدية . فهما واجلالا
لا أغالى إذا قلت أنه يفوق مثيله في قلب كل محمدى .

لقد آمنوا بأن محمداً رسول الله ، هو المفتاح الرباني للأبواب الإلهية ،
حيث تهطل الفيوضات والفتوحات ، وإن المر كل السر في المفتاح والباب ،
فكل من حاد عن الطريق السوي ، طريق الهدى المحمدي ، فقد المفتح وتوارى
عنه الباب ، فحرم من الفتح والعطاء وضل سواء السبيل .

تلك هي المدرسة التي أنجبت عباقرة التصوف ، مدرسة الاحتذاء والاقتداء
بالسنن المحمدي ، مدرسة العبودية الكاملة ، ولقد كانت تلك المدرسة
ولا تزال ، قلب الاسلام وروحه وأفقه الأعلى .

وتلك المدرسة المحمدية ، مدرسة التفكير في آيات الله ، والتعبد المتواصل في محاريب الحياة ، وكل ما في الحياة محاريب ومساجد للثومتين الموقنتين . مدرسة الحب الإلهي بما فيها من إشراق وإلهام وفيوضات ، هي التي أنجبت أبا المواهب ، الزعيم العملاق عبد الوهاب الشعراني .

والشعراني عجيبة ضخمة من عجائب تلك المدرسة . أو إن شئت فمجيبة من عجائب التصوف وصنعة من صنائع الإيمان ، ولطيفة من لطائف التقوى ، وقبس من أقباس النور المفاض على الأرواح المتطهرة العابدة .

فدعك من البحث عن مدرسته العلية ، ودعك من البحث عن مناهجه ودراساته ، فقد كوته الهامات القلب ، وصبحات الروح ، وأبرزته الطاعة والخلوة ، والمحبة والحضرة ، ورعته وجهه وزكته ، عناية الله ورضاه .

وليس معنى هذا أن الشعراني لم يكن عالماً غللاً ودارساً مبرزاً على معاصريه في علومهم ومعارفهم ، وإنما نريد أن نقول أن تلك العملاقة العلمية التي ارتفعت به منارا ، قنت في نوره علوم معاصره ، وتضاءلت حياه معارف مصاوليه ومجادليه ، كان سرها أنها من الأفق الأعلى ، من النبع الرباني الذي لا تنفى إلهاماته ولا تنضب إمداداته .

وحسب الشعراني أن رجال الاستشراق عكفوا على كتبه يستنطقونها ويتلمسون أسرارها ويقلونها على أوجه شكوكهم الملحة ، ويعرضونها على موازينهم القاسية ، وخرجوا بعد الشوط الطويل يحنون الهامات أمام العملاق الضخم الشاخص . ويطلقون القول معترفين في وضوح وصراحة بأن الشعراني أعجوبة من أعاجيب العباقرة المتصوفين ؛ أعجوبة لا يكاد تاريخ الإسلام يعرف لها مثيلا .

يقول المستشرق « فولرز » (إن الشعراني كان من الناحية العلمية والنظرية صوفياً من الطراز الأول ، وكان في الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلاً في ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً ، وإن كتبه التي تجاوزت السبعين عداً من بينها أربعة وعشرين كتاباً تعتبر ابتكاراً محضاً أصيلاً لم يسبق إليه أبداً ولم يعالج فكرتها أحد قبله .)

ويقول العلامة « ماكدونالد » (إن الشعراني كان رجلاً ذاكراً نفاذاً مخلصاً واسع العقل) ويقول في موضع آخر « إنه كان يجمع بين أعظم المميزات وإنه كان مشرعاً ذا أصالة ونفاذ . وكان عقله من العقول النادرة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى في الإسلام ، وإنه رجل أخلاق تهزه أنفة عالية .)

ويقول المستشرق - نيكلسون - عنه « إنه أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله وإنه منذ فتح المغول العالم الإسلامي . ركبت الحركة الفكرية في الإسلام واقتصرت علماؤه على الجمع والتقليد . فلا نجد بوادئ انطلاق أو إنتاج خصب منتج أو أي أثر لتفكير أصيل وضيء . باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعراني الصوفي ، وكان الشعراني بالذات مفكراً مبدعاً أصيلاً ، أثر تأثيراً واسع المدى في العالم الإسلامي ، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراءة إلحاحاً متواصلاً في طلب مؤلفاته .)

تلك هي شهادات العلماء العالمين الذين وزنوا الشعراني بموازينهم العلمية الدنيوية ، لا يميزان النورانية الصوفية ، ومع هذا فقد ارتفعت به موازينهم إلى القمة المنفردة شموخاً وخلوداً .

ولنعد إلى الأفق الأعلى ، أفق التصوف الوعر العسير المرتقى ، لقد صعد الشعراني في ممارسة ، وتنسم الذروة في محرابه ، وتزعم وساد في آفاقه .

والصعود في تلك المعارج ، وتنسم الذروة والزعامة والسيادة الصوفية ؛

قد أتيت من قبل الشعرائى لغير قليل فى هذا الأفق .

ولكن الشعرائى كان آخر نجم فى ذلك الأفق ، آخر نجم بحسب الترتيب الزمى ، ولهذا انفرد وحده مخوض أعنف معارك التصوف فى أحلك الأزمنة وأقدها وأشدّها .

وحسبه أنه حارب كل معاصريه حتى المتصوفة ، المتصوفة إسماء لا معنى فلقد فقد التصوف فى عصره حلاه وعلاه .

حارب وحده ، وانتصر وحده ، وارتقى الذروة وحيداً ، وأقام للتصوف دولة عاشت طوال حياته عزيزة غلبة .

جارب وانتصر فى أشدّ العصور الإسلامية رهبة وظلاماً وجموداً وجهلاً فاطلق آية النور المبصرة التى تمحو الظلمات ، وأعاد للفكر الإسلامى قوته وهده ، وأعاد إلى القلوب القلقة إيمانها وتقواها .

كانت الأمة الإسلامية قبيل عهده تعيش فى ظلمات يعلو بعضها بعضاً ، ظلمات خارجية تمثلت فى أمواج بربرية من جنود المغول والنثر قادمة من المشرق تفتت الشعوب الإسلامية من أساسها وتدمر حضارتها وتطفى شعلتها وأمواج صليبية قادمة من المغرب ، فوارة بالفضب والتعصب مشرعة السيف بالحقد والبغضاء .

وفى الداخل كانت الظلمات أشدّ وأقسى ، كان الركود الروحى هو العلة الكبرى ، فان النسوية التى قام بها الغزالى بين المتصوفة والفقهاء كانت قد أهدرت من جانب الأشاعرة الذين سلوا سيف الإجماع المصطنع ضد المفكرين تارة وضد المتصوفة تارة أخرى .

حتى إن تاريخ الفكر الإسلامى بعد الغزالى منذ القرن السادس الهجرى هو تاريخ النزاع المشوب بين المتصوفة والأشاعرة ، من جهة وبين المتصوفة

ورجال الحديث من جهة أخرى ، وأعقب هذا الصراع العنيف هبوط فكري عام في قوام جميعا ، كما تنتج المعارك الحربية الضعف والانهيار في القوات المتحاربة ، وتحمل العالم الاسلامي بأسره وزر تلك المعارك الجدلية الموجهة جهلا وجودا ، وبلادة ذهنية ، ونخودا روحيا قاتلا .

وجاء ابن تيمية في أواخر القرن الثاني عشر لليلاد في قعقة وزوغة ، يملأ الدنيا صياحا ضد كل مفكر سواه . ويخص بحملته الكبرى ومعركته العظمى التصوف والمتصوفة .

نادى ابن تيمية بالمعنى الحرفي للقرآن ولم يقبل في الآيات المجسمة تأويلا وفسق كل المذاهب الاسلامية في علم الكلام ، وحرّم الاجتهاد على الناس جميعاً وأباحه لنفسه ، لحدد صفات الله تعالى حسب رأيه . وحرّم زيارة الأولياء وقراءة القرآن لهم ، وتعالى فنّادى ، بأن من يزور قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه تقربا أو طلبا للشفاعة فهو ضال مبتدع .

وعاش ابن تيمية حليف السجون ومات ، سجيناً . ولكنه كان قد اطلق صيحة ملتهبة متوقدة الجمر وتناول اتباعه كلباته فضخموها وألبسوها أردية فضفاضة زادت نار الحرب وقودا وضراما ، حتى امتلأت شوارع القاهرة بالصراع والدماء بين اتباعه والمتصوفة ، كما يقول الجبرتي .

وكان السبب الأكبر في هذا الجدل والحوار ، وفي تلك الخصومات المجنونة الرعناء ، هو أن النهضة الاسلامية العلمية كانت قد نضجت جذوتها وخبأ ضوءها وأخذت البدع والخرافات والأساطير تنطلق في أفق العالم الاسلامي .

لقد ذبل المشعل الذي ظل يتقد عشرة قرون والذي أنارت أشعته الفكرية أرجاء الوجود ، ذبل بل فنى مخنوقا في الظلمات .

ويكفي لتصوير ظلمات هذا العصر . ان التصوف وهو قلب الاسلام النابض . أصبح في تلك الصورة المهلهلة التي رسمها الشعراء بقلبه .

« كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان استنارا فصار اشتهارا ، وكان إتباعا للسلف فصار إتباعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور . وكان تدفقا فصار تملقا ، وكان تجريدا فصار ثريدا .

يكفي لتصوير هذا العصر المظلم . أن الشعراء يتحدثنا عن رجل يسمى الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس على كرامى المساجد أيام الجمع وغيرها . ويقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم . وقد سمعه الشعراء يقول على طريقة قراءة القرآن ، وما أنتم في تصديقي هود بصادقين . ولقد أرسل الله لنا بالمؤنفكات يضر بوننا وبأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين . »

ثم يعقب على هذا قائلا : اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من للكلام العزيز في صحائف فلان وفلان ، ويعلق الشعراء قائلا : ولم اسمع أحدا ينكر عليه شيئا من حاله ، بل يعدون رؤيته عيدا عندهم^(١) .

وكان زميله إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ويخطب الناس قائلا : السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصوريين وجامع طولون ، واخذ الله رب العالمين ، فيحصل للناس بسط عظيم كما يقول الشعراء^(٢) .

في تلك الظلمات وفي هذا الجو الزاخر بالجهالات ، بزغ نجم الشعراء متلا لا مشرقا كأنه ظاهرة كونية جاءت في مواعدها المحدد ووقتها المرسوم . جاء كوجه صوفية أطنقها البحر الأعظم لتجث كل شيء . من جذوره ثم تنحصر قتملا الدنيا خصباً ونماء وبركة ونورا .

(١) الطبقات الكبرى ج (٢) ص ١٦٠

(٢) « ج (٢) ص ١٢٤ »

وهبه الله ومن عليه ، فكان كما صاغته عناية الله ورحته ، وكان أينما شرع قلبه تحف به الهبات والتمن فيأتي كله زخارا باليقين والهدى .

جاء مكالفاً مصلحاً ، وزعيماً قائداً ، ومرشداً هادياً ، فتمثلت فيه خصائص تلك الصفات فكان كما لقب ، أباً المواهب .

حرر التصوف من الأساطير والبدع ، وجلاه محمدياً قرآنياً ، كما أراد الله لعباده ، قوة روحية محلقة في الأفق الأعلى .

وحرر الفقه من جموده وتزمت فكان الأصولي الألمعي الذي مزج الفقه بحرارة الإيمان فأنقذه من الجفوة والجفاف . وحيه إلى الجماهير ، يوم جعله لا مجرد أحكام شرعية لحسب ، بل حقائق روحية مشرقة .

وحرر علم الكلام — التوحيد — من نزوات المجسدين وأهواء المجادلين ، وأعادته إلى نوره ورويقه الإيمان الذي عرفه واهتدى به الصدر الأول والتابعون .

وأنقذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار ، والجري وراء الأهواء والخيالات ، وردها إلى النبع الصافي والعمل الخالص لوجه الله .

ولم ينسه جهاده الديني ، زعامته الشعبية فكان المصلح الاجتماعي المدافع عن الفقير والمسكين والضعيف ، القائم في وجه الولاة والحكام يرفع كلمة الحق وينتزع حقوق الضعفاء من الأقوياء .

ووقفت الدنيا في عهده ترقب كلمة من فيه ، أو إشارة من يده ، فهو الملجأ والملاذ للظلم ينشد حقاً ، وللظلم يطلب رحمة ، وهو المرشد الهادي إلى حقائق الإيمان ولطائف العقائد ، ومشكلات الفكر والحياة ، وهو الزعيم الحبيب الذي إذا غضب ، اضطربت لتعصبه قلوب الملايين .

وهو بهذا هذا وذاك ، مؤرخ التصوف والمتصوفة ، وخليفة الغزالي .

الأوحد على الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والتعبدية في الإسلام، والمدافع
الأكبر عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي فيلسوف التصوف
العبقري ، ومحبي عالم الزوايا التي يعمرها القرآن والتي يسمع فيها ذكر الله
آناه الليل وأطراف النهار .

وقد روى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، عن ربه عز وجل
« في الحديث القدسي ، إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكرى
وأذكر بذكرهم .

تلك علامة المتصوفة ، وآية الشمراني ، وفي الخالدين من يذكر بذكر الله ،
ومن يذكر الله بذكره ...

نشأته وحياته

أسرته :

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعرائى ، فجده الأعلى هو محمد ابن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .
وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى فى الموجات المهاجرة من البيت العلوى التى اختارت الأطراف النائية من الإمبراطورية الإسلامية فراراً من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموى تارة ، وبين البيت العباسى تارة أخرى .

وفى المغرب الأقصى استطاع العلويون أن يؤسسوا دولاً ، وأن ينشئوا حضارات وأن يظفروا بالحب والتأييد من شعوب الشمال الإفريقى كافة .
ولسكنهم مع هذا لم يستطيعوا أن يوحّدوا كلمتهم ودولتهم ، بل انقسم بينهم إلى بيوت وتفرق جمهم إلى قبائل وبطون ، ولهذا تعددت دولهم ، وتعددت بيوتهم المالكة ، وتعددت قبائلهم الحاكمة .

وكان الملك فى مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بنى زغلة ، وإلى تلك القبيلة ينسب عبد الوهاب الشعرائى .

ومن خصائص العلويين ، أن الملك لم يصرفهم عن العلم ، ولم يبعد بينهم وبين الولاية الدينية ، والزعامة الروحية ، فكان منهم الملوك ، وكان منهم الأئمة الهداة .

ولهذا رى فى تاريخ بنى زغلة « أسرة الشعرائى » الملك والنصوف يدرجان معاً ويعيشان معاً ويتقاسمان الحياة سوياً ، ونشاهد جده موسى

ابن السلطان أحمد يؤثر طريق الله على الملك ومجده ، فيبتلذ على ابن مدين الصوفي ، ويترك المغرب مهاجراً إلى مصر تلبية لأمره .

ولقد أرخ الشعراني لنفسه في كتابه المثنى فلنتركه يحدثنا عن نسله . . .
 • أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء الملوك^(١) فإني بحمد الله تعالى ، عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المكنى في بلاد البهنسا بأبي العمران جدى السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام علي ابن أبي طالب رضى الله عنه .

وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد^(٢) سلطاناً بمدينة تلسان في عصر الشيخ أبي مدين المغربي ولما اجتمع به جدى موسى قال له الشيخ أبو مدين لمن تنسب ، قال : والذى السلطان أحمد ، فقال له : إنما عيت نسبك من جهة الشرف ، فقال : أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقر — أى تصوف — لا يجتمعن ، فقال : يا سيدى قد خلعت ما عدا الفقر ، فرباه فلما كل في الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر . وقال له أسكن بناحية (هو^(٣)) فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال ،

وإذن فالشعراني يقرر أن جده موسى قد حضر إلى مصر بإشارة صوفية من الامام أبي مدين ليتولى تربية المريدين والسالكين ، ويقيم للإيمان دولة على ضفاف النيل ، مؤثراً طريق الله ومجاهداته ، على نعيم الملك وأعباده .

(١) المثنى جزء ١ ص ٣٢ .

(٢) هو أبو عبد الله أحمد الزغل سلطان تلسان وما والاها .

(٣) إحدى مدن صعيدية قنا .

وهذا الأمر نهج صوفي نعرفه من تاريخ التصوف ، فالمتصوفة يعتبرون أنفسهم المدرسة الإسلامية الكبرى التي تهيمن وتشرف على القلوب المحمدية ونهيم وتشرف وتسل أيضاً عن النهضة الإسلامية والعبادات الربانية ، ينظر المتصوفة إلى العالم الإسلامي على اعتباره أمة واحدة ، هم رأسه المفكر وقلبه النابض ، ولهذا درج كبار المتصوفة على تربية أفاضال الرجال حتى إذا كلوا وأعدوا بعثوا بهم إلى المراكز الإسلامية التي تحتاج إليهم دعاء وهداة .

وإذن فقد استقر الشيخ موسى أبو العمران ببلدة (هو) وهي قرية كبرى من قرى الصعيد الأعلى ، وأهلها من قبائل الهوارة أولى البأس والعصية الإسلامية ، وأسس الشيخ موسى فيها زاوية غدت مركزاً من مراكز التصوف في مصر ومهداً من المهود التي يستتب بها رجال الدعوة الصوفية .

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التي هاجر فيها موسى إلى مصر ، ويمكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته ، فقد توفي ببلدة (هو) عام ٧٠٧ هـ بعد أن نجحت دعوته واهتدى بهديها جمهور ضخم في الصعيد الأعلى .

واستمرت أسرة الشمراني بالصعيد تحمل لواء العلم والولاية حتى مطلع القرن التاسع الهجري فهاجر عبيد الله أحمد إلى ساقية أبي شعبره بالمنوفية وأسس بها زاوية للعلم والعبادة . والتف الناس حوله ينهلون من معارفه وفنوحاته ، فقد عرف بالتفوق في العلوم الصوفية رغم أميته . كما اشتهر بالولاية والنفحات ، وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ هـ .

وحمل اللواء بعده حفيده أحمد الذي أوتي حظاً من العلم المعروف في الأزهر في عهده وحظوظاً من العلوم الربانية التي اختص بها المتصوفة .

ثم تأذن ربك لهذا البيت الكريم ، بيت الملك والدين . بأن عهد كاله

وتمامه قد حان فوجهه في ليلة مباركة . الطفل العملاق عبدالوهاب الشعراني

مولده :

ولد الشعراني عل أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ من شهر رمضان عام ١٢٩٨ هـ وكان مولده في بلدة « قلقشندة » ، وهي قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما من مولده إلى قرية أبيه وإليها انتسب ، فلقب بالشعراني ، وعرف بهذا اللقب واشتهر به ، وإن كان هو قد سمي نفسه في بعض مؤلفاته بالشعراوي .

ولقد اضطرب رجال التاريخ في تحديد مولده ، فقد ذكر صاحب النور السافر تاريخاً لمولده قبل هذا التاريخ بقليل ، وقد ذكر صاحب المناقب الكبرى تاريخاً آخر ، وأما المناوي وعلى مبارك والمستشرق شاخت ، فقد أبدوا التاريخ الذي ذكرناه .

ونحن نرجع رواية المناوي لأنه تليق بالشعراني الأول وصفه وصديقه وهو بهذا أكبر المؤرخين الصوفيين بعد الشعراني ، ويزداد ترجيحنا لهذه الرواية اتفاقاً مع رواية على مبارك وهو من أدق من أرخ لهذه الفترة من التاريخ .

واضطرب رجال التاريخ أيضاً في الحديث عن طفولته ونشأته ، فذهب المستشرقان « كرويمر » و « نيكلسون » إلى أنه اشتغل في مطلع حياته — بالحياكة —

ولكن المستشرق « فولرز » يدعي من هذا القول قائلاً : إن حياة الشعراني كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم فلم يكن من الميسور أن يجد وقتاً يحترف فيه عملاً .

ولست أدري من أين جاء المستشرقان بذلك الاقصوصة وتاريخ طفولة

الشعراني صريح في أنه لم يضيع لحظة واحدة في غير العلم والعبادة ، فقد حفظ القرآن وهو في سن التمييز كما يقول ودرس كتب النحو قبل العاشرة .

فهل هذا تاريخ رجل وهب نفسه للعلم والعبادة أم تاريخ من يشتغل بالارتزاق من الحياكة ؟ والشعراني يقول في صراحة إن من ممن الله عليه ، أنه لم تكن هناك عوائق دنيوية تعيق عن طلب العلم والعبادة . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحقي ، وهذه القناعة اغتنى عن الوقوع في الدل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقم لي أنني باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى من منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقني من حيث لا احتسب إلى وقتي هذا ، وعرضوا على الآلاف ديناراً وأكثر فردتها ولم أقبل منها شيئاً وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة فانثرهما في صحن جامع العمري فليقطعه المجاورون ،

وجرى رجال التاريخ على أنه انتقل إلى القاهرة مع والده ، وأن والده قد سعى له حتى أدخله الأزهر الشريف .

وتلك الروايات أيضاً تنحرف عن الحق وتجانب الصواب ، فإن الشعراني وهو أصدق من يؤرخ لنفسه يقول في المثنى : إنه حفظ في قرينه القرآن الكريم وهو في باكورة طفولته ، ثم حفظ أبو شجاع والأجرومية ودرسها على أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة والده .

وإذن فقدمات والده كما ماتت والدته قبل حضوره إلى القاهرة ، وكان هذا كما يقول من ممن الله عليه إذ نشأ يتيماً من الأبوين ، فكان نصيره ووليه الله .

واقدمات والده عام سبع وتسعمائة للهجرة ودفن في زاويته بساقية أبي شعرة ، وتاريخ انتقال الشعراني إلى القاهرة كما أرخه بنفسه يأتي بعد تاريخ وفاة والده بثلاثة أعوام .

الشمراني في القاهرة

مات أبوه وتركه طفلاً يتيمًا فقيرًا ، ولكن هذا الطفل اليتيم الفقير ، كان عجبًا ، كان عابداً متبتلاً مستغرقاً في صلواته واذكاره ، استغراقاً لا يعرف في مثل سنه ، وحسبك أنه كان يقوم الليل وهو في الثامنة من عمره . وكان يؤمن في أعماق نفسه بأنه قد حُف بعناية ربانية تعصمه من النقص في دينه ، كما تعصمه من السوء في حياته .

وكان يؤمن بهذا إيماناً قلبياً وجدانياً ، ويسوق على إيمانه حشداً من الأحداث والأدلة التي وقعت له في طفولته ونجاء الله منها وحفظه من عواقبها .

وكان دارساً فطنا المعيا ذا شغف وبهم بالعلوم ، وحسبك أنه قبل أن يتم العاشرة كان قد درس من كتب النحو ما أهله لمجالسة العلماء .

وكان من يؤمن أيضاً إيماناً قلبياً وجدانياً بأن الله قد وهب فوق الذاكرة الواعية المحافظة ، فهما في العلم وبصيرة في إدراك عرامضه ودقائقه .

مات أبوه فكفله أخوه العالم الصوفي الورع الشيخ عبد القادر . وعبد الوهاب يدين لأخيه بالكثير من التوجيه ، والحب الصادق ، والرعاية الكاملة الواهبة المانحة ، بل ويدين له فوق ذلك بالحضور إلى القاهرة ، حيث تفتحت أمامه الآفاق .

ويقصر علينا الشمراني تاريخ حضوره إلى القاهرة بذلك الأسلوب الاحاذي الصادق الذي عرف عن الشمراني وعرف به . فيقول .

« وكان مجيءي إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة ، وعمرى إذ ذاك

اننا عشرة سنة فاقت في جامع سيدى أبو العباس الغمرى ، وحن الله على شيخ الجامع وأولاده فكنت بينهم كائى واحدهم آكل مايا كلون والبس ما يلبسون ، فأقت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياء .

ثم يقول : ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى معتقداً عند الناس ، يعرضون على كثير أ من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردتها وتارة أطرحها فى صحن الجامع فلتقطها المجاورون ،

والشعرانى هنا يغفل الإشارة إلى حقبة من تاريخه فى طلب العلم ، وهى الفترة التى مكثها فى الأزهر .

فإجماع رجال التاريخ على أنه حضر من قرينه إلى الأزهر ، حيث قضى خمس سنوات يتلقى العلم على يد شيخه على الشونى ، الذى أحبه وقربه واصطفاه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسجد الغمرى بناء على مشورة شيخه على الشونى .

ومسجد الغمرى كان فى ذلك الوقت منارة للعلم ومثابة للطلاب ، وكانت الحياة فيه على غرار أمثاله من المساجد التى تحولت فى العالم الإسلامى إلى معاهد علمية ، لا يكتفى فيها بالتعليم فقط بل تجرى فيها أيضاً الأرزاق من الأوقاف والهبات على من يلازمها ويتخصص للعلم فيها^(١) .

ولبث الشعرانى فى مسجد الغمرى ، يعلم ويتعلم ويتعهد ويتعب ، مدة عشرة عاماً ، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند ، وفى تلك المدرسة ، بزغ نجم

(١) يقول ابن خليكان ج ١ ص ٥٥ أنه كان فى كل جامع كبير مكتبة لأنه كان من عادة العلماء أن يوفوا كتبهم على المساجد .

ويقول المقدسى أن المساجد فى القاهرة تحولت إلى معاهد عامرة بالطلاب حتى أنه أحصى فى المسجد الجامع بالقاهرة فى وقت العناء مائة وعشرة مجلساً من مجالس العلم .

الشعراني وتأتى تألقاً ملأ الدنيا حوله صباحاً . صباحاً امتزج فيه هتاف الإعجاب من محبيه بمعاصفة الانتقاد والافتراء من حساده وشائنيه .

وقد حاول بعض المستشرقين ، وجاراهم بعض درامى الشعراني ، من المعاصرين أن يلقوا ظلالاً من الشكوك والريب حول انتقاله المفاجئ . من مسجد الغمري إلى مدرسة خوندخاكو أسطورة خيالية حول حب الشعراني لابنة شيخ مسجد الغمري . وغضب والدها لذلك . ولم يأتوا بدليل واحد على دعواهم . وإنما أقاموها استنتاجاً خيالياً ، لأنهم كما يقولون لم يجدوا مبرر لهذا الانتقال فلا بد إذن أن يكون هناك غمّة سبب خفي وهذا السبب الخفي لا بد وأن يكون شجاراً بين الشعراني وشيخ المسجد . وهذا الشجار . لا بد وأن يكون أساسه حياً فشلاً . بين الشعراني وابنة الشيخ .

وتلك الأسطورة الاستنتاجية أشبه بالروايات المباهلة التي أولع بها كتاب القصص الذين لا ينظرون إلى الحياة . إلا من وراء عدسات الخيال الجدي .

وبعدئنا على مبارك عن تلك الفترة من حياة الشعراني فيقول : لقد راض الشعراني نفسه على النهج الصوفي وهو في جامع الغمري . فطارذ كره وذاع في الناس أمره . وكان شيخه على الشوق قد أذن له في أن يرتب بهذا المسجد مجلساً للصلاة والسلام على رسول الله . ولكن أولاد الغمري أكل قلوبهم الحمد على تلك المسكاة العالية التي ظفر بها الشعراني فطلبوا منه أن يغادر مسجدهم .

ويروى صاحب النور السافر . أن الشعراني أخذته حالة وجد ذات يوم فصاح باسم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد . وكاد يتصدع منها بيت الشيخ أبي الحسن الغمري وكان على صكتب منه فاستنصر هذا عن صاحب الصوت . حتى إذا عرفه هم بالرحيل إلى بيت آخر . ولكن

الشعراني كان قد سبقه إلى الرحيل . تاركا وراءه كل ما يملك وولى وجهه شطر بين السورين حتى حط رحاله بمدرسة أم خوند وأقام نجاحها ستة أيام . فرأى في منامه أن رسول الله صلوات الله عليه قد أذن له بالإقامة بها . فدخلها مع أسرته .

ولا تعارض في الجوهر بين رواية علي مبارك وبين رواية صاحب النور السافر . ففي الرواية الأولى . أن أولاد الغمري نفسوا عليه مكاتته حتى طلبوا منه الرحيل عن مسجدهم .

وفي الرواية الثانية أن الشيخ تظاهر بالرحيل لسبب تافه يضمن وراءه أكثر من معنى . وأدرك الشعراني الغاية والهدف من هذا التظاهر فسارع هو بالانتقال أدباً مع شيخه واختصاراً للخطوة الثانية التي لا ريب فيها بعد أن طغى اسم الشعراني على الشيخ وعلى أسرة الشيخ .

وإذن فهذا الانتقال كان مره التنافس والحسد لا الحب والهووى . كان ضرورة طبيعة للشعراني فقد آن أن يستقل بنفسه وبمجالسه العلوية . وأن له أن يكون صدرا لهذه المجالس لا مجرد تابع وتلميذ .

الشعراني طالب العلم

جاء الشعراني من قريته إلى القاهرة مهاجراً في سبيل العلم فعاش تحت ظلال المساجد ليله ونهاره ، متنبلاً في طلب العلم ، عالماً في التعب ، عاشراً للعلم والتقوى ، نقياً طاهراً مجدداً مكافحاً .

وقد اتصل منذ يومه الأول بالقاهرة بصغوة علمائها . جلال الدين السيوطي ، وزكريا الأنصاري ، وناصر الدين اللقاني ، والرملي . والسهرودي وأضرابهم وقد أفاض الشعراني في ذكر أساتذته مما استغرق صفحات وصفحات من كتبه . كما أفاض في ذكر إجلاله لهم ، وحبهم له .

ودرس الشعراني على أساتذته المكتبة الإيمانية كلها بثبيت فونها وعلومها في التصوف والفقه والحديث والتفسير واللغة والأصول حتى غدا كما يقول : لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علماً أو تخلق بما تخلق به عملاً .

درس الشعراني كل معارف عصره العلمية . دراسة فهم وتذوق بروح المجتهد المؤمن المحب ، روح الطالب المثالي . الذي ينشد الحق فلا يتمصبل لمذهب من غير دليل ، والذي يحمل أئمة الإسلام ورجال الفسك فيه ، فلا يسارع إلى تخطئة أحدهم ولا يبادر إلى الاعتراض عليه ، لإيمانه بأن علماء الإسلام وأئمة على هدى من ربهم ، وبصيرة من نور علمهم .

ثم هو بعد ذلك خاشع القلب متواضع : محارب العلم ، فإذا أدرك بفهمه لطيفة علمية أو لمس بذكائه واستنباطه حقيقة من حقائق المعرفة في كتاب الله وأحاديث رسوله ، فلا يحزم كما يقول بأن ما فهمه أو استنبطه هو مراد الله من آيه ، أو مراد رسوله من حديثه ، تأديباً وتحريزاً من دعوى العلم أو التبليغ ، برداء كبره وغروره .

ومن . لقيه العلمى أنه حفظ نفسه من الجدل والجدال ورفع الصوت في مجالس العلم ، ولترك الشرافى يحدثنا عن دراساته بأسلوبه البسيط الساحر . ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ثم ألفية ابن مالك ثم التوضيح لابن هشام . ثم جمع الجوامع ثم ألفية العراقي ، ثم تلخيص المفتاح ثم الشاطبية ، ثم قواعد ابن هشام وغير ذلك من المختصرات . وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ ، ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة ، لكونه أجمع كتاب في مذهب الشافعى ، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب ، وهو في أواخر الكتاب ، فلقينى بهض أرباب الاحوال بباب الخرق — باب الخلق — خارج باب زويلة فقال لى مكاشفاً :قف على باب القضاء على الغائب ولا تقص على غائب بشئ .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شئ منه ، لكننى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة وكنت أقرأ محفوظى لثمتن فى الشرح . وأنظر كل شئ توقفت فى فهمه ؛ حتى صار شرحه للشيخ زكريا ^(١) عندى نصب عينى .

ثم اقبنى الشيخ أحمد البهلولى رضى الله عنه ، فقال لى مكاشفاً : أفبل على الاشتغال بأنه ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، فشاورت فى ذلك مشايخى فقالوا . لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياء ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها ، فعليك بطريق القوم ،

ثم يقول : وقرأت محفوظاتى على شيوخى وهم نحو خمسين شيخاً ، فقرأت على الشيخ أمين الدين شرح المنهاج للجلال المحلى ، وكنت أطلع على درسى هذا ، القوت للأذرعى . والقطعة والكلمة للإسنوى والزركشى ،

(١) الشيخ زكريا الانصارى شيخ الأزهر إبان ذلك الوقت .

والقطعة للسكى، والعمدة لابن الملحق، وشرح ابن قاضي شمه . وشرح
الروض للشيخ زكريا الأنصارى، وأكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ
جلال الدين، وألصق به أوراقاً حتى ربما تصير الحواشي أكثر من
الكتاب، ثم أقرؤها كلها عليه .

وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع للشيخ جلال الدين . وحاشية
الشيخ كال الدين . وشرح العراقي للجلال الحافظ السخاوى .

ويعضى الشعرانى فى الحديث عن دراساته وشيوخه حتى يذهل القارىء
بذلك الفيض الدافق من الكتب التى أحاط بها وألم بدقائقها وأسرارها .

الشعرانى فى طريقه إلى الله :

تنفس الشعرانى أول ما تنفس الحياة فى جو صوفى خالص . وفى بيت
قوامه التعمد والتبذل ، فهو يتحدر من أسرة ترك رأسها الأول مجده الملك
ورفايته ونعيمه ، إلى الهج الصوفى ومجاهداته ومسارح تعبداته ؛ ومجال
تأملاته، وأجواء تحقيقاته . ومطالع أنواره وإلهاماته . حتى إذا كل وارتنوى
واستوى انطلق داعياً إلى الله . على بصيرة من أمره .

وقفى أبناؤه أثر خطواته . فكان منهم إلاتقى نقى . وعالم ربانى وإمام
من الهداة . وجاء الشعرانى فرأى أول مارأى والده الصوفى صاحب الخلوة
الذى كان قليلاً من الليل ما يهجع ، وشاهد شقيقه العالم الصوفى الذى وهب
نفسه لله . فكان يستغفر الله . مع كل نفس من أنفاسه . والذى ترك الحلال
خشية الشبهات .

وعاش الشعرانى طاهراً بين أطهار . قوته القرآن الذى حفظه قبل التمييز
ولم يكن لهوه فى طفولته عبث أطفال ، وشغب صغار . بل فتح عينيه ليقرأ
ويقرأ فى التفسير والحديث والفقه والأصول . وليجالس العلماء . ويتلقى منهم

وينهل من معارفهم وهو في الثانية عشر من عمره .

ومن الله عليه فكان شيوخه جميعا في دراساته عن جمعوا بين الدراسة العلمية ، والمناهج التعبدية الصوفية .

ولهذا رأينا الشعراني ينزع إلى التصوف ويتعجل السبل إلى أن يشق طريقه على أيدي أرباب الطريق . ورأينا شيوخه يطلبون منه التريث حتى يستكمل العلوم الظاهرية حفظا وفهما واستنباطا .

ولكن الشعراني كان من حيث لا يشعر صوفيا كاملا من صغره . فقد زاول التصوف عملا بفطرته . فنحن نراه يكبح شهواته ويرد رغباته حتى عن الحلال المباح . ويقبل على ذكر الله ليله ونهاره حتى ليعلق في سقف خلوته جبلا يطوق عنقه متى جلس منذ المشاء حتى مطلع الفجر . ليأمن سنوات النوم وغفواته . فإن غلبه الناس على أمره . صب على جسمه الماء البارد ولقد أخذ نفسه في العبادة منذ صغره بالأحوط والأكل . والأحوط عنده اجتناب المكروه كأنه حرام ، والاعتناء بالسنة كأنها واجبة وهكذا .

والشعراني نفسه يفصل هذا المقام فيقول : أن من من الله عليه أن ألهمه مجاهدة نفسه من غير شيخ . لما تبهر في العلم ، ثم بشيخ ليساعده كما يقول على إزالة الموانع التي تعوقه عن العمل بما علمه .

ولترك الشعراني يحدثننا بأسلوبه القلبي الساحر راويا لنا قصة عباداته ومجاهداته :

« وتركت أكل لذيذ الطعام . ولبست الخيش والمرقات نحو سنتين . ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين . ثم أغاثني الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامي إذ ذاك . وكنت لا آكل طعاما أمين ولا مباشرا ولا تاجر ولا فقيه وغيرهم ممن في كسبهم شك . وضاعت على الأرض كلها ونهزت من

جميع الناس فكنت أقيم في المساجد المهجورة . والابرار الحراب مدة طويلة
وما رأيت أصنى من تلك الأيام .

وكنيت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز .
وضعت بشرتي . وقويت روحاني . حتى كنت أصدق بالهمة في الهوا . إلى
الصاري المصوب على صحن جامع الغمري ^(١) فأجلس عليه في الليل والناس
نيام . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع . أنزل بمجد وقعب لغلبة روحاني .
وطلبها الصعود إلى عالمها . فانه لا يثقل الانسان إلى الأرض إلا كثرة
الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن
فكان الروح تشاق إلى القرب من حضرة ربها . إذا سمعت كلامه أو اسمه
فتكاد تلحق بمعالمها العلوى .

ولما غلب على طلب العزلة عن الناس . تنكرت منى قلوب أصحابي .
ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفونى من ضيق وقى عن مباسطتهم بالكلام
اللغو .

وكنيت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع
الفجر . ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار . ثم أصلى الضحى وأذكر
حتى يدخل وقت الظهر . فأصلى الظهر . ثم أذكر إلى العصر . ومن صلاة
العصر إلى المغرب . ومن صلاة المغرب إلى العشاء . وهكذا فسكت على ذلك
نحو سنة . وكنيت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم أنهجد
بإيقه فأختمه قبل الفجر . وربما صليت بالقرآن كله في ركعة . وكان نومي
غلبة تخطب رأسى خطقة بعد خطقة . وخفقة بعد خفقة وكثيراً ما يقب على
النوم فأضرب أنفادى بالسوط . وربما نزلت بتياني في الماء البارد في الشتاء
حتى لا يأخذنى النوم .

(١) الجزء الأول من المتن .

وهذه الأمور من قاعدة ما إذا تعارض عندنا مفسدتان وجب ارتكاب
 أخضهما مفسدة ، ولا شك في أن وقوف المحب بين يدي الله عز وجل في
 الظلام مع تألم جسمه بالضرب . أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل
 حال تجليه مع صحة جسمه ، كما أشار إليه قوله عليه السلام : « خصلتان مغبون فيهما كثير
 من الناس الصحة والفراغ » ولكل مقام رجال ، ومن طلب نفيساً خاطر
 بنفيس فعلم أن المحب لله في وادي ، والمتكر عليه في واد آخر ، ومن طالع
 أحوال القوم في مجاهداتهم سهل عليه ما يكابده في نفسه ، فقد وقع للشبلي أنه
 كان إذا غلب عليه النوم يضرب نفسه بقضيب الخيزران حتى ربما أفنى الحزমে
 في الليلة الواحدة ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تورمت
 قدماءه ، فأنزل الله عليه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لنشقى إلا تذكرة لمن
 يخشى : الآية » .

وهكذا كان الشمراني صوفياً بغير شيخ .

ويمضي الشمراني في وصف مجاهداته لنفسه ، وهي مجاهدات لا يطبقها
 إلا رجال الله . بل لا يصبر على الاستماع إليها ولا يجد مذاقها عند ذكرها
 إلا من أحبه الله وارتضاء لهدهاء . حتى يقبل قول الشمراني أنه حينما طعم
 التراب لما افتقد الحلال في مطعمه . حاله لما وسعنا وأبنا .

أجل . من ارتضاء الله للهدى . وأتار قلبه . يرتضى هذا القول من
 الشمراني ويفسره تفسيراً روحياً . أليس كل شيء نأكله أصلاً من التراب ؟
 ثم يعطف الشمراني على ثمرة هذه المجاهدات في خلقه وحياته . فيقول .
 « أنه بلغ مقاماً في الزهد حتى لو أمطرت السماء ذهباً وصار الناس ينتهبونه .
 لم يجد داعياً إلى أخذ شيء منه إلا لأمر مشروع . ولو مر على تلال الذهب
 والفضة من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا . ولا حساب عليها في العقبى لم
 يتناول منها ديناراً واحداً إلا لضرورة شرعية . فقد قى اختياره مع الله .

وقد تد أعضاء الشهوة للمصيبة أو الجناه . ثم حضوره دائماً بقلبه مع الله .
أو كما يقول : « ثم حضوري مع الله حال أكلتي ومشربتي كأني في الصلاة » .
وبلغ مقاماً في الخلق من صفاته شفقته على جميع المسلمين شفقة قلبية حتى
يتألم كما يتألم أخوه المؤمن ، وبحس بشقائه كما يحس به ، ثم صموده فوق ذلك
درجات لتشمل رحمته الدنيا بأسرها ، إذ يقول .

« ثم ستري لعورات الناس وعيوبهم حتى العصاة ، وذلك لون من الخلق
والرحمة . لم يعرف لغير المتصوفة .

ثم تصدره للدعوة والارشاد وإعلاء كلمة الله . حتى إنه ليقف في وجه
كبار العصاة والولاة هاتفا بكلمة الحق ودعوته . لأن روحه وقلبه عند الله
لا عند الناس ، ولأنه جعل أخلاقه ، مقاصد لا وسائل .

ثم ماذا ؟ ثم كما يقول . غيبتني على أذني أن تسمع زورا ، وعلى عيني أن
تنظر محرما وعلى اساني أن يتكلم باطلا .

ذلك بعض ما أخذ الشعراء به نفسه من تعبد وخلق ، قبل تصوفه ،
أو قبل أن يسلك الطريق إلى الله على أيدي شيوخه .

شيوخه في الطريق

يقول شيخ المتصوفة القشيري ، في ترجمة أبي علي الثقي ، لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس كلهم ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه ويريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يحل الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

ويقول الشعراي . . . ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالي ، وعز الدين بن عبد السلام ، إلى شيخ ، مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما الطريق ، من قال : إن ثم طريقاً للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله كذباً ، فلما دخلا الطريق كانا يقولان : قد ضيعنا عمرنا بالبطالة والحجاب .

والمتصوفة جميعاً قد أجمعوا على أن السالك لطريق الله لا بد له من شيخ مرشد ، ليكشف له الصحيح من الزائف ، في الإلهامات والواردات ، وليعلمه الأدب وطرائق التحلي به ، ليفصل له في خواطر قلبه ، وليعضمه من الزال وليداوى أمراضه النفسية ، من الكبر والرياء وحب الدنيا . والحد والفن والفاق ، وأمثالها .

فالتصوف لإلهامات ، تبدأ بعد نهايات أهل الفكر والدرس ، وقوامه معان واستنباطات ، وفهم في أسرار القرآن ، فلا بد لرائده من مصباح وهاد والشيخ هو المصباح الهادي .

والنصوف آداب وتركبة نفوس ، وتطهير أخلاق ، وبجاءات وتصحيح معاملات ، والشيخ هنا يثبت ويرشد ، ويهيم ويفصل الآيات . ثم يقول الشعراي ، رداً على من يقول بأن السلف الصالح لم يعرف هذا اللون من الترية ، وهذا اللون الممثل في الشيخ والمريد .

، وقد كان السلف الصالح لصفاء نفوسهم وقلوبهم ، لا يحتاجون في طريق العمل بعلمهم إلى شيخ لعدم الموانع ، وصار الناس اليوم لهم موانع لا تخص لذلك وجب اتخاذ شيخ يرشد إلى طريق إزالة هذه الموانع ، من باب ما لا يتم الواجب إلا به . فهو واجب ، فإن اشتغل المريد بعد ذلك بالعلم ، أو صلى أو صام ، أو تورع أو زهد ، كان محفوظا من الرعونات التي تخرج مقام الاخلاص أو تعبط العمل .

وحقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه ، على وفق ما أمر الله به ، وكانت صور مجاهداني لنفسي من غير شيخ ، أتت كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيري ، وعوارف المعارف ، والقوت لأن طالب المسكن ، والاحياء للفرالى ونحو ذلك . وأعمل كالذى يدخل دربا لا يدري هل ينفذ أم لا ؟ فان رآه نافذا خرج منه ، وإلا رجع من التعب . فهذا مثال من لا شيخ له فان فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد ، ومن سلك من غير شيخ تاه ، وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ ، مثال دليل الحجاج إلى مكة في الليالى المظلمة .

ثم يقول . والشيخ في الطريق ضرورة لازمة ، بالغ ما بلغ علم المريد ، ولو حفظ آلاف الكتب ، فهو في هذه الحالة كمن يحفظ كتابا في الطب ولا يعرف عمليا منازل الدواء على الداء ، فاذا سمعه سامع وهو يدرس الكتاب قال إنه طيب عظيم ، فاذا رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته علم حينئذ مقدار جهله .

ويشترط في الشيخ كما يقول الشعراني فوق تبعده ووصوله ، أن يكون متبحرا في علوم الشريعة على اختلاف أنواعها عارفا بالاصول ومذاهب الاثمة الاربعة وغيرها ، بحيث يعرف أدلتها ومنازع أقوالها ، محبطا بأمر الكتاب التي يتفرع منها كل قول .

ولما جاء ميقات الشعرائى ليسلك الطريق إلى باريه وهاديه ، سلوكا كما
اشترط المتصوفة ، وكما رسمه العابدون الواصلون الأولون ، أشار عليه أحمد
البهلول ، صفيه ونجيه ، بأنه وإن كان قاب قوسين أو أدنى من النور الربانى
والفتح الإلهى ، إلا أن القمم العالية لا يعبدها إلا الشيخ السالك المدرب
الموهوب المأذون له .

واستقر كلام صفيه ونجيه فى قلبه . فلما آب إلى منزله ، وانتهى من أوراده
وتسبيحاته لم يجد قلبه خالصا . بل وجد كلام صفيه ونجيه أحمد البهلول ، يرأوده
ويأخذ عليه بجامع قلبه . وخواطر نفسه . حتى إذا أسله الجهد إلى سنة من
النوم . إذ بطيف تلالا أجنحته . وبفوح طيب وعطره يمس له فى منامه
بالإشارة والبشارة .

وإذا بالبشارة والإشارة تحولان إلى كلام حلو جميل . لازم قلب
الشعرائى طوال حياته .

« إن أردت حياة قلبك الحياة التى لاموت بعدها . فأخرج عن الركون
إلى الخلق ، ومت عن هواك وإرادتك . فهناك يحبك الله عز وجل حياة
لاموت بعدها ، ويفنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده .
ويريحك راحة لا تعب بعدها . ويعلمك علما لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة
لا تدنس بعدها ، ويرفع قدرك فى قلوب عباده ، فلا تحقر بعدها .
قد ذهبت أيام المحن وجاءت أيام المنن ... »

واستيقظ الشعرائى عامر القلب بالأمانى ، فانطلق إلى شيوخ الطريق وهم
بعض أصدقائه وبعض شيوخه ؛ ولترك الشعرائى يحدثننا بحديثه القلبى عن
انتقاله من مقامات العلم والزهد إلى مقامات الفتح والصفاء .

« ... واقدم اجتمعت بخلايق لا تحصى من أهل الطريق ، النفس لديهم
المفاتيح والأواب لم يكن لى وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة . على

المرصني ، ومحمد الشناوي ، وعلى الخواص . رضى الله عنهم .
فسلكت على يد الأولين شيتايسيرا ، وكان فطامى على يد على الخواص
أعنى الفطام البير المعهود بين القوم ، وإلا فالحق ، أنه لافطام حتى يموت
الإنسان .

ومنهم عرفت بقينا أنه لا بد من شيخ في الطريق ، كما قال موسى للخضر
هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا .

وقد اعترف الإمام أحمد بن حنبل لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه .
كما اعترف الإمام ابن سريج لأبي القاسم الجنيد .

وكان الغزالي يقول بعد اجتماعه بشيخه : ضيقنا عمرنا بالبطالة ، وهو
حجة الإسلام ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو من هو ، يقول
ما عرفت الإسلام الكامل ، إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي
ولما اجتمعت بأهل الطريق . قالوا لي : اجمل أعمالك كلها مقاصد ،
لنحضر فيها مع الله تعالى ، ولا نتخذها وسائل ، فتموت ولا تصل إلى
مقصودك . فقربوا على الطريق ...

الشعرانى والخواص

الخواص رجل من رجال الله . وعلم من الأعلام الهداة ، ومحجة ومارة من المنارات التى يهبها الله لعباده ، لتكون للسالكين إليه ، نوراً وسلباً .
ولكل رجل من رجال الله مقام . ولكل رجل من رجال الله رسالة فى الحياة . فمنهم من رسالته فى التربية والتوجيه . القلم والبيان . ومنهم من رسالته الكرامات وخوارق العادات ، للتبشير واليقين ، ومنهم من رسالته تربية المريدين ، ومن رسالته تربية العارفين .

والمربين للعارفين هم الكمل السادة ، ومنهم من يظهره الله . ومنهم من يحجبه ، ومنهم بين هؤلاء وهؤلاء .

فالخواص فى الطريق ، وعند أهله ، كامل من السادة ، وإن جهله الناس وإن أنكره العوام ، العوام رغم علمهم ، ورغم ما بأيديهم من أقلام وكتب .
الخواص كامل من السادة ، وحجته على مكائته عند أهل الطريق معروفة واضحة ، وحجته عند غيرهم أنه صنع العارف بالله عبد الوهاب الشعرانى .
ولقد صنع الخواص عبد الوهاب الصوفى ، وعبد الوهاب خلده بتصوفه أى الجانب الذى تولاه الخواص ، وحسب الخواص هذا عندهم لا يعرفه .
ولقد عاش الشعرانى طوال حياته الصوفية ، وعاءاً من أوعية الخواص فالخواص إمامه وهاديه . وأستاذه وملقته ومرييه .

والخواص هو معراج الشعرانى وسله الذى صعد عليه إلى أبواب الفتح وسموات المنح ومناطق الإلهام والنور . وليس فى هذا ما ينقص الشعرانى . بل فى هذا مفخرته . لأن به كان خلوده .

وصلة الخواص بالشعرانى هى آية الآيات على مقام الشيخ فى الطريق ، وهى آية كونية على مقام العلم الدنى ، فلقد كان الخواص أياً وكان الشعرانى

عالما ، ذلك هو حكم الظاهر أما حكم الباطن . فلقد كان الخواص عالما وكان الشمراني أميا .

علم الأول كان الوهب . وعلم الثاني كان الكتب . والعلم الحقيقي عند الصوفية . العلم الذي يقول صاحبه بملء فيه إنه على . هو علوم الفتح لأنها خاضة بصاحبها . أما علوم الكسب . فهي ليست علوم صاحبها إنما هي علوم الكتب . أو كما يقول الخواص « علوم الرجل حقيقة » هو ما لم يسبق إليه وأما من كان علمه مستفادا من النقل . فليس ذلك له بعلم . إنما هو صاحب لصاحب العلم .

والشمراني يقول : إن من ممن الله عليه . أن كان وصوله وفتحه على يد أمي لا يعرف القراءة والكتابة . ويقول في وصف هذا الأمي .

« رجل غلب عليه الخفاء . فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم . إلا العلماء العاملون . لأنه رجل كامل عندنا بلا شك . والكامل إذا بلغ مقام الكمال في العرفان صار غريبا في الأكوان » .

ولترك الشمراني يحدثنا بحديثه الروحي العذب عن وصوله إلى معارج المعارف العلوية على يد شيخه . ثم يحدثنا عن بحار علوم شيخه ومرشده .

« وكانت مجاهداتي على يد سيدي على الخواص ، كثيرة متنوعة ، منها أنه أمرني أول اجتماعي عليه . يبيع جميع كني والتصدق بشمها على الفقراء ففعلت وكانت كتبها نفيسة مما يساوي عادة ثمنها كثير افعبتها وتصدق بشمها ، فصار عندي النفات إليها . لكثرة تعي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها . حتى صرت كأنني سلبت العلم ، فقال لي اعمل على قطع النفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإهم قالوا : ملفت لا يصل . فعملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله من ذلك .

ثم أمرني بال عزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيراً منهم فقال لي . إعمل على قطع إنك خير منهم . المجاهدت نفسي حتى صرت أرى أذلهم خيراً مني .

ثم أمرني بالإختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعت ، فرأيت نفسي حينئذ . أنني صرت أفضل مقاماً منهم ، فقال لي إعمل على قطع ذلك أيضاً . فعملت حتى قطعت .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سرّاً وعلانية والإنقطاع بالكلية إليه ، وكل خاطر خطر لي بما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فوراً ، فمكثت على ذلك عدة أشهر

ثم أمرني بترك أكل الشهوات مطلقاً فتركها واكتفيت بما يبدد الرمح ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد بالهمة في الهواء . وصارت العلوم العقلية تراحم العلوم الوهية ، ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعني على أدلتها الشرعية ، فلما أطلعت عليها وصار لوح قلبي يموحاً من العلوم العقلية لاندراجها تحت الأدلة ، ترادفت على حينئذ العلوم الوهية . ثم يتحدث الشعراني حديثاً طويلاً عن ترقبه للواردات والالهامات والفتح ، وكيف أمره شيخه الخواص بضروب من المجاهدات لصفاء قلبه واستكمال قطع علائقه الدنيوية . وأخيراً أخبره شيخه بأن بداية فتحه ستكون على شاطئ النيل في مكان حدده له . فإذا انتهى الشعراني من ذلك قال :

« فيينا أنا واقف على ساحل النيل عند بيوت البرابرة وسواق القلعة أنتظر وأترقب . إذا بآبواب من العلوم اللدنية افتتحت لقلبي كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث . واستقبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك من العلوم . حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين . فمكثت على ذلك نحو مائة كراسة ، فلما عرضتها

على سيدى على الخواص أمرنى بفعله . وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك ففعلتها . وأمرنى بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام ، فصرت أعرض عليه كل شىء فتح به على وهو يقول أعرض عن هذا ، وأطلب ما فوقه ، إلى أن كان ما كان ، فهذا صورة فتحنى بهذه المجاهدة ، على يدى شيخى فالحمد لله رب العالمين .

ثم يصور لنا الشعراى بعد ذلك فيما يصور ، من صلاته بالخواص ، بحر العلم الخاص بشيخه فيصفه ، بأنه مبسوط الرحاب عميق القاع ، أمواجه الكشمت الصحيح ، وعبابه التعريف الإلهى .

ولقد غطس الشعراى كما يقول فى بحر شيخه خمس مرات — ومن حق المرید أن يغترف من بحر المعرفة الخاص بشيخه — فلما هم بالسادسة استحال البحر حجراً .

وقد وجد الشعراى فى كل مرة غاص فيها صيداً ثميناً ، صيدها خزانة من خزان العلم اللدنى .

فى المرة الأولى وجد خزانة على بابها قفل ، ففتحها بقول لا إله إلا الله ، فوجد فيها عجبا ، وجد العلوم التى برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم على اختلاف طبقاته ، من الصديقة الكبرى إلى آخر درجات الولاية .

وتلك الخزانة تشتمل على علوم لا تحصى ولا تدرك إلا بتعريف من الله عز وجل ، ووجد الشعراى علوم تلك الخزانة مرتبة منسقة . وعلى كل علم لإسمه .

ولقد أخرج الشعراى كما يقول جميع تلك العلوم من الخزانة وجعلها من جملة ذخائره ومعارفه وأضافها إلى ما عنده .

فلما غطس فى المرة الثانية ، وجد خزانة أخرى على بابها قفلان . ففتحها

باسم الله ، فوجد فيها جملة من آيات القرآن العظيم من أول سورة الحاقة إلى آخر القرآن ، ووجد تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوباً . وهو علم لا ندركه العقول ، ولا يستفاد من كتب .

وأخرج الشعراني أيضاً علوم تلك الخزنة وأضافها إلى معارفه وذخائره وضمها إلى ثروته وكنوزه .

وهكذا يمضي الشعراني مصوراً لنا بحار شيخه ومعارفه اللدنية ، شارحاً للخزن المملوءة بالكنوز التي عثر عليها في تلك البحار ، وكيفية فتحها وما فيها من علوم استحوذ عليها واستفاد بها . وهو تصوير برعت فيه الأقلام الصوفية ومرن عليه الذوق الصوفي .

والمراد بالخزن وأقفالها وما كُتب عليها وطرائق فتحها . هو فيما نعتقد الرهن إلى أسرار الذكر . وأسرار أسماء الله الحسنى . وفنوحات تلاوتها . والذكر هو سر التصوف وروحه ، كما أنه عندهم بداية الإلهام ونهايته وليس بصوفي من غفل لحظة عن ذكر الله ، أو التفكير في آياته .

وعلى هذا النهج تصوف الشعراني ، فكان تصوفه بداية خلوده ، وكان تصوفه فتحاً ربانياً كما يقولون . لعصره ، والعصور المتعاقبة .

فلقد رقى الشعراني آلافاً من المريدين والتلاميذ المعاصرين له . وجعل منهم مدرسة إيمانية تذكّر الله . وتدعو إلى هداه ، ولا تزال كتبه تربي وتمنح الهدى واليقين للآلاف من التلاميذ والمريدين .

الشعراني في مدرسة خوند

استقر الشعراني بمدرسة أم خوند ، بعيدا عن مسجد القمرى المشحون
بالدسائس والحسد ، وزالت أيام المحن جميعها ، وأقبلت أيام المن جميعها ،
كما يقول الشعراني .

وفي مدرسة أم خوند ، دخل الشعراني دورا جديدا من أدوار حياته
الكبرى ، وابتدأت الخطوط المريضة لمجده العريض ، ترتسم وتتحدد ،
وتأخذ ألوانها وتجه إلى أهدافها .

ففي تلك المدرسة تصوف الشعراني . وسلك الطريق إلى الله ، وفيها
كانت مجالسه العلية والتعبدية ، التي غدت قبلة لصفوة العباد والعلماء ، بلوذن
بالشعراني الإمام العابد العالم ، ينهلون من علمه ، ويفتخرون من فيضه ،
ويلتمسون النور في هديه وكله .

كما غدت تلك المجالس أيضا ، مهوى أفئدة الكبراء والأمراء وأصحاب
الوجاهة ، يلتمسون لدى صاحبها شفاعته في أمور دنياهم ، أو توددا للجهامير
وزلنى لديهم ، فقد أصبح الشعراني زعيما شعبيا مرهوب الجانب ، كما غدا
صاحب صوت وكلمة عالية في مصر ، ومطاعة في استانبول ، عاصمة الإسلام
ومقر الخلافة التي تدين لها مصر بالتبعية والولاء .

ولا يخلو الأمر أيضا من النحاس بركات هذا القطب ، القطب الذي بزغ
نجمه وتلألأ وأخذت الدنيا تمثله وتفيض بالأساطير الساحرة عن
نفحاته وعجائبه .

الشعراني والخليفة

وجاء السلطان سليم خليفة العالم الإسلامي إلى مصر زائراً ، فكان يومه عبداً ، وكانت أيامه بمصر تاريخاً ، وكان القرب منه أو التشرف برؤيته عزاً وجاهاً ومطلباً عالياً .

وحف به الأمراء ، ولاذ به الكبراء . وهرع إليه العلماء والفقهاء ، يأمّلون في القبول ويرفعون آيات الولاء .

وبقى رجل واحد ، لا يسعى إلى أمير المؤمنين . ولا يمشي في الركاب ولا يحني رأسه . تلك الانحناءات الدليلة التي عرفت في المراسيم التركية .

وارتفع همس إلى السلطان سليم بتخلفه . وتضخم الهمس فغدا دويلاً . فاسم الشعراني يزاحم الشمس ، فلا يمكن أن يخفى . ولا يمكن أن يتواري ولا يمكن ألا يلبس الزائر العظيم تخلفه .

وحدثت الكرامة ، أو حدثت الآية التي طالما أكرم الله بها رجاله وعباده الذين عفوا عن الدنيا ، فسمت إليهم الدنيا .

أجل لقد سمعت الدنيا . سمعت الخلافة التركية بجلالها وبهائها إلى الرجل العابد القانت المتواضع المعرض عن الدنيا وأسايب الحياة .

سمى الخليفة العظيم ، إلى الصوفي العظيم ، فكان ما بينهما رمزا إلى الدنيا والآخرة ، وبين دهشة الخاشية وعجب الأمراء وذهول العلماء والفقهاء النفس السلطان سليم طريقه إلى الشعراني .

وكان يوماً عظيماً تاريخياً للرجلين الكبيرين ، ومن هذا اليوم لم يستطع حاكم في القاهرة أن يعصى للشعراني أمراً أو يردله طلباً .

وكان القضاء في مصر خلال تلك الحقبة من التاريخ . للقاضي محي الدين

عبد القادر الأزيكي ، وكان في طبعه حدة فاصطدم بنائب السلطان سليم على مصر فأهدر النائب دمه وخصص جائزة لقتله .

واختفى القاضي طويلاً حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضائق به حياته انطلق إلى الشعراني شاكياً لائذا وتعهد للشعراني أن يقيم مسجداً لله . إن أنقذه الله من شر خصمه ويجه من تلك المحنة .

وابقى الشعراني وتناول عوداً رفيعاً من الأرض وقال له اذهب فالتى الحاكم هذا العود ، ولا تخشى سوءاً ولا شراً .

فتردد القاضي وأذهله هذا الأمر ، فقد تشفع له الأمراء والسادة فلم تقبل شفاعتهم فكيف يستجيب الحاكم بعد ذلك ، ولا شفاعته اليوم ، ولا وساطة ، الا عود صغير من الشيخ .

ولاحظ أتباع الشيخ تردده فنار ثائرم ، وهتفوا به اذهب وسرى عجا فالشيخ لا يمزح وإن بدا الأمر شاذاً غريباً ، وأسرار الشيخ ونفحاته لا تنكر ولا نجحد ، ومضى القاضي على وجل للقاء الحاكم حتى إذا دنا من مجلسه ألقى العود أمامه . وبين عجبه ودهشته ، خف الباشا لاستقباله والاحتفاء به ، وأعادته الى منصبه وأصدر أمراً بالعفو عنه .

تلك رواية كتب المناقب ، وفي رواية أخرى ، أن الشعراني التمس من السلطان سليم العفو عن القاضي المهدر الدم فأجاب طلبه وقبل شفاعته .

وسواء كانت الرواية الأولى أو الثانية ، فقد غدا القاضي يدين بحياته للشعراني ، ويدين أيضاً ببناء مسجدهم بمخصص للشعراني ولجالسه العلمية والتعبدية واتباع القاضي أرض فضاء في أطراف حي باب الشعرية ، ليقم فيها المسجد الذى وعده ، وقبل أن يبدأ القاضي فى البناء عدا أحد الأمراء الأتراك على الأرض فاغتصبها واعتزم أن يقيم عليها بيتاً له .

ونصدى للأمير التركي رجل من أصحاب الاحوال ، فأئذره بسوء العاقبة إن لم يترك هذه الأرض التي قدر لها أن تكون مسجداً لله ومقراً للشعراني حياً وميتاً

وشحك الأمير التركي ، وأعلن لحاشيته وسط السخريّة اللاذعة ، أنه لا يؤمن بالمجازيب ولا يعتقد في الكرامات . وأن الاهتمام بمثل هذه الأمور صغار لا يليق بالسادة الأمراء .

ومضى ركب الحياة . فإذا بالشلل ياً . فجدد الأمير بعد أيام . ثم يسلمه للوثة . ولم يمض أسبوع واحد على هذا المدوان .

وأُسرع القاضي محي الدين إلى الأرض . فساد عليها مسجداً عظيماً فخماً واسع الرحاب . هو المسجد الذي عرف في التاريخ باسم مسجد الشعراني وابتنى في المسجد زاوية انتقل إليها الشعراني بأهله . بعد أن جعلها القاضي وقفاً عليه وعلى أسرته ، وغدت الزاوية بعد ذلك جزءاً من تاريخ الشعراني لأن بها كانت أعظم أيامه . ولأنها غدت من أعظم مراكز العلم والتعبد في العالم الاسلامي .

وحضر البناؤون كثيراً من الآثار لهذه الزاوية ولكنهم لم يعمروا على الماء فطلب الشعراني من شيوخه ، نور الدين الشونى ، حلاً لهذا الأمر . والشونى يتحدث عنه الرواة بأنه . كان يجتمع برسول الله صلوات الله عليه يقظة ومثماً .

وبعد أيام جاء نور الدين الشونى ليقول للشعراني : بأن البئر يجب أن تحفر في مكان حدده وعينه . وقال إن هذا بناء عن إذن من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وحفرت البئر . فكان مؤها سلسيلاً عذباً ، حتى لقد تطايرت الشائعات بأن ماءها يتصل ببئر زمزم وأقبلت الجماهير عليها القاسا لبركات مائها وأسراره

زاوية الشعراني

لعبت الزوايا والمساجد في تاريخ الإسلام دوراً كبيراً خطيراً ، فقد كان المسجد مكتبة ومدرسة ومصلًى ، كان معهداً لتربية العقول ، ومعهداً لتطهير القلوب ، بل لقد كان مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة ، كلية حرية يتعلم فيها الصحابة تحت رعاية نبيهم القتال ، من ضرب الرماح إلى رشق السهام .

والذين تربوا تحت ظلال المساجد في تاريخ الإسلام ، هم علماؤه ، وفقهائوه ، بل وفرسانه ومقاتليه أيضاً .

ولقد خطا أحمد بن طولون خطوة أخرى في واجبات المساجد ، فألحق بمسجده الكبير صيدلية تداوى المرضى ، وتوزع الدواء بالجان على الفقراء والمحتاجين ، وبذلك غدت المساجد محور القوى الروحية والفكرية والبدنية في العالم الاسلامي ، وهل ينسى تاريخ الإسلام ، بل تاريخ الحضارة العالمية الأعمال الخالدة ، التي حققتها المدارس . الكاملة ، والنظامية ، والطولية والأزهر .

فن تلك المساجد . شعت أنوار المعرفة ، التي حملت للعالم أسمى الحضارات وأطهر الدراسات . أنوار المعرفة التي صاغت العقول الإسلامية وأضأت لها الحياة أكثر من عشرة قرون ، ومكنت للقوة الإسلامية في الأرض حتى كانت . وحدها صاحبة القول الفصل في شئون الكوكب الأرضي .

وزاوية الشعراني ، كانت في القرن العاشر الهجري منافساً خطيراً للأزهر بل لقد كانت الناحية التعليمية فيها ، أكبر مما يطبق الأزهر ، وكانت سبل العيش لطلابها أيسر وأهناً ، وزاوية الشعراني جزء لا يتجزأ من تاريخه . بل إن تاريخه ليفقد جانباً مضيئاً ساعراً لو أهملنا الحديث عنها .

والحديث عن زاوية الشعراني ، يترقق ويتشعب لمن يريد أن يحيط

بألوانها وصورها ، بل هو حديث فى حاجة إلى كتاب خاص ، ودراسة مستقلة ، فلقد نهضت تلك الزاوية بما يساوى جهد وزارتين من الوزارات التى نعرفها . أعنى وزارتى الشئون والمعارف .

ونحن هنا نحاول أن نعطي صورة سريعة لحياة الشعرائى داخل زاويته ، وصورة سريعة لأثرها فى المجتمع المصرى .

حول الشعرائى الزاوية التى بناها له القاضى محيى الدين ، إلى رباط للعباد ومدرسة للعلم والتعليم ، وزاوية للصوفيين المستجدين ، ومسجد للصلاة وإقامة الشعائر . وثكنة للفقراء والمحتاجين ، وكان هو قطب الرحى لتلك الحركة الدائمة واقف أوقف عليها القاضى محيى الدين ، أوقافا وأرزاقا ، كفلت الحياة لموظفيها من المؤذنين والفقراء ، والآئمة والخطباء .

ولكن الحياة قد اتسعت داخل الزاوية . فقد كفل اسم الشعرائى لزاويته مكانة عالية فأقبل عليها الراغبون من كل حذب ينسلون .

أقبل عليها الأمراء والسادة ، يوقفون عليها أملاكهم وأموالهم ، ويقدمون إلى طلابها المنح والهدايا ، على اختلاف أنواعها .

وأقبل عليها آلاف المريدين والطلالين للعلم من الفقراء الذين أعسروا فلم يستطيعوا طلبا للعلم ، بل لم يستطيعوا الحياة الكريمة ، فكفل لهم الشعرائى داخل زاويته العلم ، العلم بشقيه من تثقيف وتعبيد ، كما كفل لهم الحياة الكريمة بأوسع معانى تلك الكلمة .

حتى لقد أفسح للتزوجين منهم مكانا فى زاويته . يقيمون فيه مع أولادهم وزوجاتهم طاعمين كاسين متمعين ، لا يحملون من هموم الرزق كثيرا ولا قليلا ماداموا قد انقطعوا للعلم . وما دامت أخلاقهم وعبادتهم بما يرضى عنه الله ولقد بلغ عدد طلاب الزاوية فى أول أمرها مائتين بينهم تسعة وعشرون كفيلا

وبعدنا التاريخ حديثا عجبا عن ميزانية تلك الزاوية . وعن الخيرات
والنعم التي تجري في ساحاتها فلقد كان يعد لطلابها من الخبز كل صباح
أربابا وثلاث الأردب من أتق أنواع القمح .

أما ميزانيتها عن عام : فمئسة قناطير من عمل النحل . وعشرين قنطارا
من عمل القصب . وأربعين أردبا من المول ومن الكشك سبعة . ومن
الأرز مثله . ومن البسلة والعدس خمسة وعشرين أردبا ... وهكذا .

فإذا أقبل العيد . عيد الفطر . كانت ميزانيتها من الكعك خمسة أرباب
غير الهدايا . ومن الجوز والبندق والخروب ولحم والزبيب والتين ما قدر
بخمسة قناطير . ومن الفواكه شيء لا يقع تحت حصر . ويكفي أن نذكر أن
ميزانية الزاوية من البطيخ في العام كانت أكثر من ألفين .

ولم يقتصر الأمر على هذا النعم فقط . بل شملت رعاية الشمراني
مريديه وتلاميذه في أوسع الآفاق . فهم أبناءه وأحبابه في الله ومن حقهم
عليه أن يدبر أمورهم كافة . ومن تدبير أمرهم أن ينظر في أمر استكمال
دينهم . ومن كمال الدين الزواج . ولهذا زوج الشمراني في زاويته أربعين
رجلا من مريديه قام عنهم بالمهر ونفقات الزواج . وحرص على تزويد
زوجاتهم بكل شيء . يحظر على العقل من شئون النساء ولو ازمهن . حتى اللبان
الشامى والحجازى والشمع والخضاب وغرائب أنواع الزينة وألوان العطور
وأدوات التطرية والتجميل .

ومن كمال الدين الحج إلى بيت الله . ولهذا أرسل الشمراني أفواجا من
تلاميذه إلى الأرض المقدسة باذلا في سبيل راحتهم والعناية بأمرهم مثل
ما بذل في أمر زواجهم . من الاهتمام العجيب بكل دقيقة وصغيرة بما يدل
على شفاقة ذلك الروح الكبير . الذي شمل حبه وحنانه كل من أحاط به
أو لاذ برحانه .

ولم تقف مكارم الشعراني عند هذا الحد . بل تحدثنا كتب المناقب بأنه كان يقوم بتزويد العلماء والفقهاء والمشايخ في مصر وغيرها بالغذاء والكساء والماء . حتى لاكان كل فقير من أهل العلم أمانة في عنقه . ويحدثنا الشعراني بأنه قد كسا بالثياب عدداً لا يحصىه عد ولا يحيط به حصر من الشيوخ الفقراء آلافاً مؤلفة .

أما ضيوف الشعراني ورواده في زاويته ، والذين قدروا في كتب التاريخ بحوالي مائة زائر يومياً فقد كان الشيخ معهم سخي اليد سخي القلب سخي العاطفة .

ومع هذا العبء العظيم ، وهذه النفقات الطائلة التي حملها الشعراني ، لم يفض نبع الخيرات في زاويته ، بل كان دافقاً جياشاً دائماً ، وفي وسط هذا النجم والخير المقيم ، كان الشعراني يعيش يومه على جرعة من ماء وتمرات يقمن صلبه

تلك هي الناحية المادية من زاوية الشعراني ، أما الحياة الروحية فيها ، فهو الوجه الأكثر وضاعة وإشراقاً ، فلقد تحدث مؤرخوه من معاصريه بأن زاويته كانت أعظم المنارات العلمية والتعبدية في العالم الإسلامي خلال القرن العاشر الهجري .

فلقد كان الشعراني أوسع أهل عصره علماً ، وأعلام كعباً في التصوف والنفحات الدينية . كما كان ذروة في التجد والخلق لا تطاولها ذروة ، وبذلك العملاقة العلمية والروحانية التعبدية ، طبع الشعراني زاويته وربى مربيه وتلامذته ، فدرسوا على يديه العلوم الشرعية على اختلاف أنواعها وتلقوا منه المعارف الصوفية على اتساع آفاقها وشمولها ودقائق أسرارها ومكارم أخلاقها .

وكان قراء القرآن الكريم فيها ، يواصلون القراءة ليلاً ونهاراً . حتى

لا تخلو الزاوية دقيقة واحدة من قراءة القرآن .

وبجوار قراءة القرآن ، المجالس العلمية ، فلا يفرغ قارىء في الحديث ، حتى يبدأ قارىء في التفسير ، وما ينتهى حتى يشرع ثالث في قراءة التصوف ولا ينتهى حتى يليه قارىء في الفقه . وهكذا آتاء الليل وأطراف النهار من غير انقطاع .

ويحدثنا المناوى وصاحب طبقات الشاذلية : بأن الناس كانوا يسمعون لزاويته دوياء كدوى النحل ليلاً ونهاراً .

وبجوار هؤلاء هؤلاء ، كان العباد والذاكرون المنقطعون للذكر والعبادة حتى ليقول الشبلى المؤرخ : بأنه لم ير في مشارق الارض ومغاربها خيراً من زاوية الشمراني ، علماً وفضلاً وتصرفاً وأدباً .

ولقد أخرجت تلك الزاوية الخالدة أعظم علماء القرن العاشر الهجرى وأكبر متصوفيه . لقد كانت زاوية خالدة ، وكانت زاوية الخالدين .

إلى الملا الأعلى

حدثنا الشعرائى عن سلوكه إلى الله على يد شيخه الخواص . وكيف
أجلسه الخواص فى محاريب الطهارة والتمد ، وأخذ عليه العهد ولفنه الذكر .
وأعطاه الورد وأخلاه عما سوى الله وأنبأه بأن الفتح الإلهى والهبات
الربانية اللدنية ستكون بدايتها فى مكان معلوم مقدر بروضة المقياس على
شاطئ النيل .

ثم حدثنا عن أحاسيسه القلبية فى أيام ترقبه وانتظاره ، وكيف تلكت
العلوم الوهية إلى قلبه فكذب منها ما شاء الله أن يكتب ، ثم عرضها على
شيخه فأنبأه بأنها لا تخلو من علوم ظاهرية ، وطلب إليه عموها ، وانتظار
علوم أكثر صفاء وثباتا .

وتكرر الأمر بينه وبين شيخه ، حتى جاء الفتح الإلهى ، وكانت بدايته
أن اهتم علم آداب العبودية فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب
سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة .

فلما عرض ما وهبه الله له فى هذا اليوم على شيخه ، قال له . وتم أمرك
وعلا شأنك ، وروى قلبك ، فابق على ما تكتب ، فسجل الشعرائى فتوحاته
الأولى فى كتابه ، الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية .

وتوالى المنح والفتوحات على الشعرائى ، فقد تم أمره وعلا قدره
وروى قلبه ، وأن له أن يهب الفكر الإسلامى . شيئا مما منحه الله فانطلق
ينثر علومه فى مجالسه العلمية ، ويجعل من زاويته منارة عالمية . ومحفلا من
محافل العلم الكبرى ، ومنهلا عذبا لسليلا للأمة المحمدية .

ثم أقبل الشعرائى على التحرير والتأليف ، فى شتى فروع المعرفة حتى
وهب المكتبة الإسلامية أكثر من مائة كتاب فى التصوف والفقه والأصول
والتفسير والحديث والنحو والطب والكيمياء والأخلاق وغيرها من ألوان العلوم

والمعارف ، وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات ؛ ووقع الكثير منها في مجلدين وأكثر هذه المؤلفات لا يزال محفوظا وموزعا على دور الكتب في أرجاء العالم .
ولقد أحصى المستشرق « بروكلمان » أكثر من ستين كتابا مخطوطا متناثرة في دور العلم العالمية ، ويذكر لنا على مبارك باشا ، بأن الكتب التي رآها للشعراني أكثر من سبعين كتابا .

وبلغ الشعراني في عصره مكانة علية . حجبنا في الدلالة عليها أن أحد شائقه كتب سؤالا عن فقرات وردت في كتاب « العهود المحمدية » للشعراني وقدمه إلى شيخ الإسلام الفتوح الحنبلي . فامتنع الشيخ الفتوح عن التعليق عليه . قائلا : إن الشعراني قد أحاط من العلم بما لم نخط به . وقد قرأ من الكتب ما لا يعرف له اسما ، وأنه لو ادعى تأليفها ما وجد في مصر منازعا . تلك لمحة عن مكانة الشعراني الذي قال له شيخه الأكبر على الخواص :
« نعم أمرك وعلا شأنك . وروى قلبك »

وكان من تمام الأمر للشعراني . أو من تمام المقابلة في حياته . أن مكانته العلية . مشت جيباً إلى جنب مع مكانته الدنيوية .

فقد أصبحت زاويته تسهم بنفوذها في توجيهات الحكم في مصر . بل وفي الامبراطورية التركية بأسرها .

وبلغ من اعتزاز الشعراني بمكانته الدينية . أن يأتي إليه الوزير الأعظم على باشا قبيل سفره إلى تركيا . ليقول له « نحن مقربون للخليفة فهل لك من حاجة ترفعها إليه » . فيهدف الشعراني غاضبا « ألك حاجة عند الله : إننا مقربون إلى حضرته »

وزي حاكما من حكام مصر . هو الأمير حسن بك صنجق . يتلذذ على الشعراني ثم يقبل على حبه ويقبل على درسه . حتى يلزمه في زاويته لبلا ونهاراً تاركا الإمارة والحكم .

ولكن الشعراني لا يرضى عن تلك الصبغة لأن فيها إستخفافاً بمصالح الرعية وهى أمانة فى عنق الأمير . وواجهه الأول أن يتخصص لها . ويتفرغ لشئونها .

ولكن حب الأمير لشيوخه الشعراني . كان أكبر من حبه للإمارة وجاهاها . والحكم وسلطانه ونفوذه . فزعله وكبرلديه أن يفارق الشعراني ومجالسه وما فيها من أنس وعلم وتقوى ، فاعتزم أمراً عجباً . سره الأكبر يلتبس لدى التصوف والمحبة فى الله .

وفى اليوم التالى تجلى هذا الأمر . فعلم الشمس فرق الأمير أهواله . وأعتق عبده . وأوقف أملاكه على وجوه الخير وأستبقى من هذا الثراء العريض رخام بيت من بيوتاته . وكان تحفة نادرة . وقليل من المال . أما الرخام الفخم النادر والمال القليل . فقد اعتزم الأمير أن يبني بهما ضريحاً ومزاراً لشيوخه الشعراني وفاء وحبا .

وأقبل الأمير على أستاذه . فقيراً متجرداً ليسلك على يديه طريق الهدى واليقين . بلا عائق من حكم ولا مانع من أمانة .

وبكى الشعراني . فها هو رجل يترك من الدنيا شيئاً لم يتركه الشعراني وبزهذ زهداً يتضامل حباله كل زهد . ثم طلب من تلميذه أن يترث قليلاً فى بناء الضريح حتى إذا أحس الشعراني بأن ساعة صعود روحه إلى بارئها وهاذها قد دنت طلب من الأمير أن يقيم الضريح الذى اعتزم إقامته .

ولما شيد الضريح وارتفعت منارته . وانتهى البناءون من آخر قطعة فيه فى نفس اللحظة . انعقد لسان الشعراني وجمدت أطرافه فقد استوفى أنفاسه .

وكانت وفاته فى الثانى عشر من جماد الأول سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للهجرة وكانت آخر كلماته . أما ذاهب إلى ربي الرحيم الكريم .

رسالة التصوف

الشعراني . والروح الصوفي

تسكلمنا عن حياة الشعراني وما اتصل بها أحداث تاريخية ، ونحاول الآن أن ندرس ما تركه للفكر الإسلامي من علوم ومعارف ، وما تركه للروحانية الإسلامية من جولات صوفية ، ومعارف لدنية ، وما كان لهذا وذاك من أثر في توجهات الحياة الإسلامية العقلية والعلمية .

والشعراني لسان صدق من ألسنة التصوف التي أبدعت آياته الكبرى ومنارة من مناراته العظمى ، التي قامت على مفترق الطرق الروحية والعقلية ترشد السائرين إلى الله ، وتهدي الحائزين المتعبين إلى شواطئ السلام واليقين وله بعد ذلك في التصوف رسالة ما أحسب أن أحداً — باستثناء الغزالي — حل أعلامها أو جاهد في سبيلها . مثل ما حل الشعراني وجاهد .

وتلك الرسالة ، هي تنقية التصوف من الدخيل والدخلاء ، وتجليته نهجاً إيمانياً تعدياً خالصاً لله ، هدفه الطاعة الكاملة ، والعبودية الصادقة ، والمحبة الروحية بأنوارها وآدابها السامية لا يعرف الجدل ولا الحوار ، ولا يقر الشطح والسبح الفلسفي ،

وربط المعارف الصوفية الدنية ، بالعلوم الإسلامية الظاهرية ، والخروج بالامة الإسلامية من الجدليات والخلافات ، إلى روح الدين وجوهره ، إلى اليقين الثابت . والعمل الصالح والوحدة القلبية والفكرية وإقامة أسس الحياة على الرحمة والمحبة . لا على الشقاق والجدل البغيض .

والشعراني ككل المتصوفة . مفتاح شخصيته في تصوفه وروحانيته ، فالشخص الصوفي . قد يترامون أشباحاً باهتة الظلال للمعين المادية ، وقد

يرامون في عدسات الباحثين المنطقيين في أردية الذاجة والبساطة حيناً .
وفي أردية الغموض والابهام أحياناً .

ومرد هذا ارتفاعهم الروحي الهائل عما ألف الناس واعتادوا من ألوان
وأخلاق وعما ألف الناس واعتادوا من معارف نظرية وعقلية ، ولهذا
تخطئهم العين المجردة ، كما تخطئهم العدسات المادية .

إننا في حاجة إلى عدسات روحية خاصة حينما نتعرض لتلك الأرواح
كما نحتاج إلى مكبرات خاصة حينما نتطلع إلى نجوم السماء .

فقوة المنصوف العظمى ، إنما تكمن في روحه . فكلما اقتربنا من دائرته
الروحية تجلت لنا آياته . وتجلت لنا شخصيته وتجلت لنا علاقته الروحية
والعلمية . لأنهم شغوص كوثهم العقيدة وصاغتهم الروحانية ولهذا نقرب
من فهمهم ونقترب منهم ، كلما اقتربنا من التصوف ومن فهم التصوف .

واذن فلا بد لدارس شخصية الشمراني من أن يتحدث عن التصوف ،
فالحديث عن الروح الصوفي . هو المدخل لدراسة كل متصوف إسلامي .
ودارس التصوف الإسلامي ، يرى نفسه باديء بدء ، وسط أمواج
صخابة ، وبحار زاخرات . بل وسط دوامة مفرغة الحلقات ، لا يجد لعبابها
شاطئاً ، ولا من نوثها عاصم .

فقد امتلاً مركب التصوف بالدخلاء من كل نحلة ولون ، كما دست على
المعارف الصوفية عقائد تكاد تتمثل فيها عقائد الكوكب الأرضي كافة .

وطريق البحث بعد ذلك ليس معبداً بل ليس آمناً . فالباحث يجد أمامه
مزاجاً عجيباً من الأخبار المتشابهة المضاربة التي امتزج فيها الحصى بالجواهر
وامتزجاً أحياناً حتى يحتاج الدارس إلى معمل فكري للصهر والتمييز .

وما يجده الباحث من حر الجواهر إنما يجده متأثراً لا يكون وحدة

فكرية ، ولا يقيم مبحثاً علياً متأسفاً . فهو بحاجة إلى صبر مدده من عند الله ، حتى يستطيع أن يؤلف بين هذه الأجزاء ويرد كل جوهر إلى عقده ، حتى يستقيم البحث ، وحتى يتجلى جمال اللؤلؤ المكنون .

وكثيراً ما يجد الباحث نفسه أمام ألوان فلسفية مادية . وألوان من التأملات الجامحة ، وألوان من الشطحات المضللة ، أدخلت على التصوف ، وهي ليست من روحه ولا من عقيدته . وأعسر من هذا وأشد قوة . أن هذه الألوان قد دسها المفرضون والمزيفون في كتب الأئمة والفائدة من رجال التصوف . ومشى هذا التزييف على التاريخ حتى أصبح جزءاً منه .

وكتب المناقب التي عنت بالتصوف ورجاله كثيرة ومتنوعة ، ولكن كثرتها لا تمهدى السبيل ولا تير الطريق . إذ أنها عاوانف من الأخبار تسودها المبالغة حيناً . والاضطراب أحياناً ، ويجرى فيها الدس والتزييف تارة والاهام والغفوض تارة أخرى .

وتأتى بعد ذلك دراسات المستشرقين . الذين ساهموا بقصد أو بغير قصد في تشويه التصوف وتغيير وجهه . لأنهم اتجهوا بدراساتهم إلى ألوان من التصوف لا تعتبر من صميمه ولا تعبر عن شخصيته ، اتجهوا إلى السبحات الفلسفية ، والشطحات القلبية ، وهو لون دخيل على التصوف لحق به في إحدى مراحل المتأخرة ، حينما انتقل من القلوب إلى العقول ، ومن التمدد إلى التأمل حينما أصبح التفلسف لا الإيمان طريقاً إلى الله ، وطريقاً إلى المعرفة . وحينما انصرف بعض المنتسبين إلى التصوف إلى نظريات في الوجود ونظريات في المعرفة لا يعترف بها الإسلام ولا ترضى عنها الألحان الصوفية المأثمة .

ثم جاءت في أعقابهم كتب المؤرخين المعاصرين من رجالنا . فإذا بهم يحرون في أعقاب أساتذتهم من رجال الاستشراق ، وإذا بهم يقومون كما وقع أساتذتهم في أحابيل خصوم التصوف القدامى الذين دسوا عليه

وزيفوا الحانه . وإذا بهم أيضاً يعنون بالشكليات ويغرمون بالشاذ من الآراء ويولعون بإبراز الكلمات المهروزة . كما أولع الآوريون بها من قبل . الكلمات المهروزة التي استبطوا منها تارة فكرة الحل والائحاد . وتارة نظرية وحدة الوجود . وإذا بهم يتحدثون أيضاً كما تحدث شبوخهم عن الصلات بين التصوف الاسلامى والوثنية الهندية . والتصوف المحمدى والروحانية المسيحية .

ودارت أفلامهم فى هذا المجال وتشعبت بهم السبل . حتى أسلمتهم إلى نظريات وصور . قد تنسب إلى كل نحلة عرفها العقل الإنسانى ماعدا النهج الربانى الإسلامى .

وأغفلوا تماماً جوهر الإسلام وروحه . وهما أبداً ما يكونان عن هذه الألوان والصور . ولم ينظروا إلى منابته المحمدية . وعقيدته القرآنية وأخلاقه المثالية وتعبداته السامية . وتراثه فى المعرفة . وهو أصدق صور الإيمان المحمدى . وأعلى ذرى الهدى القرآنى .

فهى إذن محاولة جريئة وشاقة تلك التي حاولها ، إذ يحاول تنقية التصوف مما درس عليه وألحق به . ونمزيق الحجب التي توارث خلفها أنواره واختفى فى طياتها ريقه وسناؤه . حتى نجعله ربانياً إسلامياً خالصاً . كما عرفه الأولون الذين عاشوا فى محاربه ومعابده وأنواره ومعارجه .

ولقد شهد التاريخ محاولات سابقة فى سبيل هذه الرسالة العليا ، فلقد قام حجة الإسلام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، بحركته الإصلاحية الكبرى فى سبيل تجديد التصوف وتنقيته من الألوان الفلسفية التي دسها عليه خصوم الإسلام من أصحاب المذاهب الباطنية ، ومن الدجل الشعبي الذى أدخله عليه جهله العوام وبعض طوائف المتحررين من الأخلاق ،

كما قام بهذه الرسالة العظمى بقوة ونجاح القطب الشعرائى فى القرن
العاشر الهجرى .

ونحن اليوم فى حاجة ملحة إلى تصفية جديدة ، وتنقية جديدة ، وحركة
تجديدية أخرى . نحن فى حاجة إلى جهود متوافرة لدراسة التصوف وتنقيته
من الشوائب ، وبما زور التاريخ ، وبما أدخل الرواة ، وبما دس عليه ونسب
إليه وحف بروحه وتعلق بأرديته حتى زده إلى فطرته الأولى فزده إلى
القلوب إيماناً ، وإلى الأخلاق طهارة ، وإلى المثالية عنواناً ورمزاً ، بل إلى
الإنسانية بأسرها سلاماً وسعادة وأماناً .

وإلى لكبير الأمل ، فى أن تكون تلك الدراسات التى تقدمها هنا ،
بداية موفقة لتلك الحركة المباركة . أو على الأقل منظاراً يرشد إلى طريقها ،
ويهدى إلى سبلها .

التصوف الإسلامى

والمعارف العالمية

والتصوف الإسلامى هو أعلى قمة حامت حولها المحاولات العالمية للكمال الروحى والمعارف الدنية حامت حولها الجهود العالمية ، ولا أقول بلغتها ، لأن سبل الكمال الروحى قد تعددت بتعدد الفلسفات وتعدد الوسائل والغايات ، فقد حاول قوم أن يقبسوا من نور هذا الكمال بالتصفية والتخلية ، كرجال الفلسفة شراقية ، وحاول قوم أن ينالوه بالنسك والطهارة كزهاد البوجا الهندية . وحاول آخرون أن يبلغوه بالاستغراق والتأمل ، كأصحاب المذاهب النظرية والفلسفية .

وعدة هؤلاء هؤلاء و هؤلاء هذا الكمال ، جهد بشرى وسبل ابتدعوها ومذاهب اعتقوها وعاشوا لها ، وهى وان وصلت بهم إلى ألوان من هذا الكمال . إلا أنها ألوان مستعارة لا أصيلة . لأنها منحرفة الغاية . وان استقامت الوسيلة .

وقد ترقى أرواح هؤلاء هؤلاء . حتى تأتى بما يشبه الإلهام ، وبما يشبه الخوارق والكرامات . إلا أنها قد تفضل وتشتق ، لأنها اقتبست هداها من داخلها . ولم تقبس هداها من خالقها وموجدها .

أما التصوف الإسلامى ، فقد تشابه وسائله فى الزهد والنسك والتصفية والتخلية والتأمل والطهارة ، مع هؤلاء ومع هؤلاء . ولكنه تشابه عرضى وتقارب شكلى . لأن التصوف الإسلامى ليس مذهباً من مذاهب الفلسفة ، وليس محلة من محل الزاهدين والمتأملين وليس هدفه من تلك الوسائل ما تهدف الفلسفة من كمال عقلى . وطاقة نظرية وما ينشده الزهاد والناسك من إطلاق لقوى الروح . حتى تأتى بالعجائب والغرائب .

وإما التصوف الإسلامى هو كمال فى العبادة . وكمال فى الطاعة . وكمال فى العبودية . هو عجة لله . وعمل على رضاه ، وأمل فى مجواه ، هو أنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح . أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ لأن لها دائماً الحياة فى القلب . دائماً الحياة فى الروح . دائماً الحياة فى الإدراك والحس .

أنشودة تحبل الكون بأسره إلى آية ربانية . يلبسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن . كما تدركها الروح . فإذا بكل شئ . محراب . وإذا بكل شئ . مصل . وإذا بالصوفى لا يبرح المحراب ولا يفارق المصل ، أينما توجه بوجهه وسبح بفكره . إنه دائماً مع الله فهو متأدب بأدب من أحسن يقيناً فى كل لحظة بصر . بأن الله معه يسمع ويرى .

وما يأتى بعد ذلك من علم وفيض . وما يأتى بعد ذلك من خارقة أوكرامة . وما يأتى بعد ذلك من كمال روحى أو اشراق نفسى . فهو نافله ، لأنه وسيلة لا غاية . وسلم لا هدف .

فالمعارف الصوفية إذن ثمرة الكمال فى العبادة ومنحة الفيض فى الطاعة وأنوار القلب فى محبة ونجواه . إنها حلى الطريق . لا أساسه وروحه . وإذن فلا سبيل إلى إقامة صلة من الصلات بين التصوف الإسلامى وبين أى لون من ألوان الروحانية العالمية .

ولا سبيل إلى المقارنة بين المعارف الصوفية الإسلامية وبين المعارف الفلسفية والنظرية والعقلية التى جرت على وجه الأرض مع أعتة التاريخ الإنسانى . فلكل المذاهب الفلسفية والعقلية ، قد استمدت معارفها من التفوق العقلى تارة ، ومن الصفاء الروحى تارة أخرى ، أما التصوف الإسلامى ، فعادفه تبعها عقيدته الإسلامية ، ومددها فيض ربانى داخل نطق تلك العقيدة القرآنية وبأسرار عبادتها ، وبذلك تحددت رسالة التصوف وعرفت ضوابطها

بينما أعنة المعارف الروحانية الأخرى . لا تقبض عليها يد تتحكم إليها ، ولم
ترسم لها شريعة ترجع لها ولم تثبت معارفها في حقل إيمانى سماوى يمنعها من
النزوات والاندفاعات .

التصوف الإسلامى آية ، سرها فى الهدى القرآنى ، والروحانية المحمدية
وإنى لأحسبه أحيانا آية ، كونية . لأنه ضرورة لازمة لهذا الوجود . وغاية
من غاياته وحجتنا قوله تعالى . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .
والتصوف هو أكل صور العبادات فى خير أمة أخرجت للناس .
لأنه تطوع دائم للعبادة . تطوع بعد الفرائض والنوافل . ولهذا لم يكن
شرعة عامة بل كان ميزة خاصة : لمن أخذ الكتاب بقوة واصطفاه الله وأتاه
عزما وعلمه من لدنه علما .

وإذن فلن نقالى إذا قلنا إن قة المعارف الدنيوية التى بلفتها الأجنحة
الصوفية الإسلامية لم تبلغها بل لم تدن منها أجنحة أخرى . لأنها قة المحبة
الربانية وهى قة لا تصل إليها إلا الأجنحة المحمدية المؤمنة العابدة .

الطريق الرباني

والمعارف الإلهية

الكشف الباطني ، والفيض الرباني ، هما عنوان التصوف الاسلامي وهما المحور الذي تدور حوله المعارف الصوفية كما تدور حوله النصوصات بينهم وبين رجال الفكر من أصحاب المذاهب النظرية والعقائبة ، وبين رجال العلم الظاهري من الفقهاء الذين قدسوا القواعد التي ابتكروها للدرجة وتادوا بأنها دون سواها . الحكمة وفصل الخطاب .

وأنا أجزؤ فأقول : إنه لا الكشف الباطني ، ولا الفيض الرباني هدفا من أهداف المتصوفة الإسلاميين ولا غرضا من أغراض العباد الربانيين .

إنما هدفهم الأول عبادة الله . عبادة خالصة له دون سواه ، عبادة تقرهم منه وتدينهم من رضاه ، وقد تفننوا في هذه العبادة وجعلوها شرعة ومنهاجا وكونوا من فليستها آدابا وأخلاقا ، وسبحوا في بحارها سباحا طويلا فكانت قوتهم ، وكانت حياتهم ، ومن تلك العبادة كان ذوقهم وكان لحنهم .

والمتصوفة حقا . هم العاملون لا المتكلمون . هم الذين تطوعوا لله فوق الفرائض والنوافل . وترفقوا في هذا التطوع حتى تكونت لديهم حساسة إيمانية . أو طاعة تعبدية . تكاد تدخل في نطاق المعجزة . حتى لهم ليراقبوا الله مع أنفاسهم . فكل نفس يخرج من صدورهم ، فهو لذكر الله ، أو استغفار أو تضرع أو تحوى .

وتلك العبادة الدائمة الخالصة أدنتهم من الله وقربتهم فأحبهم وأحبوه . وأنس بهم ، وأنسوا به ، ورضى عنهم ورضوا عنه ، فغمرتهم أنوار المحبة ، وفاصلت حياتهم بالنور والسعادة والأنس والقرب . فتكونت لهم فلسفة في المحبة ، جعلوها شرعة ونهاجا . وأنشودة ولحنا ، ومن تلك المحبة . كان ذوقهم

وكان لوهم . ومنها تفرعت مقاماتهم وأحوالهم ، وعليها كان تخليقهم وكانت معارجهم .

ثم أفاض الله عليهم المعارف اللدنية جزاءً وفاقا . ومنحهم الكشف الباطني هبة وعطاء ورزقهم فوق هذا رزقا أضمره ، فكان السر الذي ضنوا به حيناً ورمزوا إليه أحياناً ، وسر هذا السر يلتمس عند الأثر المشهور : « عبدى أطلعنى تكن ربانياً ثقل لى . كن فىكون . »

ذلك فصل الخطاب فى التصوف . فالكشف الباطنى والعلم اللدنى . والخوارق والكرامات لم تكن هدفاً ولا غرضاً ولا أملاً لدى المتصوفة ، وإنما كانت هبة ومنحة وعطاء ربانياً .

والكشف الباطنى والعلم الربانى . رغم ما دار حوله من جدل وحوار ، ورغم ما أثير بسببه من ملاحظات وخصومات ورد به القرآن الكريم ووردت به الأحاديث الصحيحة .

قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلنا من لدنا علماً » « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك » « يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

وقصة موسى والنضر معروفة ومعروضة فى القرآن الكريم عرضاً مبيناً تجلت فيه مكانة العلم اللدنى ، والمعرفة الباطنية التى أوتيتها النضر من لدن ربه .

ووردت هذه القصة فى كتب الأحاديث الصحاح بصورة مجلوة ناطقة بأن العلم لله وحده . ثم هو للانسان عارية ، يمنحه الله لمن يشاء ، نبياً كان أو ولياً .

عن أبى بن كعب ، عن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال : قام موسى خطيباً فى بنى إسرائيل ، فمثل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم . فعتب الله عليه

إذ لم يرد العلم إلى الله فأوحى الله إليه : إن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يارب . وكيف به . فقل له ، احمل حوتاً فى مكثك فإذا فقدته فهو شئ . فانطلق وانطلق وانطلق معه فتاة يوشع بن نون ، وحمل حوتاً فى مكثك حتى كانا عند الصخرة ، وضعا رأسهما فناما ، فأنسل الحوت من المكث فالتخذ سبيله فى البحر سرياً . وكان موسى وفناء عجباً ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما . فلما أصبحا ، قال موسى افتاه : آتتا غداً لنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به فقال له فناء : أرايت إذ آوينا إلى الصخرة فإنى نسبت الحوت ، قال موسى ذلك ما كنا نبغى . فارتدا على آثارهما قصصاً . فلما انتهيا إلى الصخرة ، اذا برجل مسحى شوب . أو قل مسحى شوبه . فلم موسى فقال الخضر . وأنا بأرضك السلام فقال أنا موسى . فقال : موسى بنى امرائيل ؟ قال نعم . قال : هل أتبعك على أن تعلمنى بما علمت رشداً ، قال : انك لن تستطع معى صبراً ، يا موسى إني على علم من علم الله علمته لا تعلمه أنت . وأنت على علم علمه الله لا أعلمه .

ثم روى الحديث بقية القصة كما وردت فى القرآن الكريم . وختم الحديث قوله صلوات الله وسلامه عليه ولودنا لو صبر موسى حتى يعرض علينا من أمرهما ،^(١)

الخضر على علم من علم الله . علمه إياه لا يعلمه موسى . وموسى على علم علمه له الله لا يعلمه الخضر . فالعلم إذن علم الله يهب منه ما يشاء لمن يشاء . والعلم صفة من صفات الله يفرض منه على عباده بنسب حكمتها عند فاطر السموات والأرضين ، وسرها عند من أوحى إلى النحل ، وأنطق النمل ، وألمهم الطير نسيجه يقول تعالى : ولا تعلمه هؤلاء . وما كان عطاء ربك محذورا .

ويقول الغزالي في الرسالة اللدنية مفصلاً بين العلين الباطني والظاهري ومدللاً على شرف العلم اللدني وسيادته .

« وبيان هذا يوجد في قصة آدم عليه السلام والملائكة فانهم تعلوا طول عمرهم ، وحصلوا بفنون الطرق كثيراً من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات وآدم عليه السلام ما كان عالماً لأنه ما تعلم . وما رأى معلداً . فتفاخرت الملائكة عليه فقالوا نحن نسبح بحمدك ونقدس لك . ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكنونات . وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه جميع الأسماء . ثم عرضهم على الملائكة . فقال : أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، فصغر حالهم عند آدم وقل عليهم وانكسرت سفينة جبروتهم ففرقوا في بحر العجز ا قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا . فقال تعالى : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فأبأهم آدم عليه السلام عدة مكنونات العلم ومستندات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء . أن العلم الغيبي اللدني أكمل من العلوم المكتسبة .

وإذن فالعلم اللدني مقرر في أصول الشريعة الإسلامية . بين اللحن في القرآن والسنة المحمدية . ولكن ومن عجب ؟ أن المنتصوفة قد هوجوا هجوما عنيفاً قاسياً بسببه من العقليين والفقهاء وخاصة فقهاء الحنابلة . الذين كان أمامهم الجليل أحمد بن حنبل من رؤوس التصوف وأعلامه بأخلاقه وتعبداته ولون حياته وهو القائل : ليس العلم بكثرة الثقلين والرواية وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من أحبه وأطاعه .

وأعجب من هذا العجب أنهم يهاجمون هذا العلم الصوفي في موقف النقد للتصوفة . ثم يقررونه في مواقف أخرى إذا رافق لهم الأمر . فإن تيممه وهو رأس تلك الطائفة الناقدة المجرحة يشرح في رسالته معنى الوحي ثم يعقب قائلاً .

، والالهام بالمعنى السالف للؤمنين جميعا يقين . ثم يتحدث عن الفيض الرباني فيقول . وهو لمن أطاع الله واتقاه . ويستشهد على ذلك بالآيات والأحاديث مهللا ومكبرا الحديث أبو هريرة الذي رواه البخاري عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالزوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها . ثم يقول وهذا الحديث غاية الغايات فى الالهام والفيض .

ويقول ابن القيم تليذ ابن تيمية الأكبر فى كتابه « الوابل الصيب » ، الذ ذكر شجرة وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم ثمرتها . فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد . .

وإذن لحق خصوم المنصوفة قد سلخوا بالكشف والفيض والالهام . والمذاهب الروحية العالمية جميعها تؤمن بأن الصفاء الروحية والزهد والأعراض عن مفاتن الدنيا ومباهجها طريقا للبرقة ، وطريقا أيضا للخوارق والمهيمنة على عناصر الطبيعة .

يقول الأستاذ المعاد فى كتابه عن غاندى شارحا لصلاة غاندى وأثرها فى تكوينه ومقامها من زعامته .

« وصلاة غاندى هى أعظم شئ فى بيان عقيدته . فنحن لهذا نفترق من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته ، لأن الصلاة عنده لا تنبت عن طلب أو استغاثة أو ابتهاج . ولكنها تنبت إلى حسن فوق الحس وفوق التفكير وفوق الطلب والابتهاج ، وهى عنده أعلى مراتب الوعي الذى يتاح للكائن الموجود ، لأن الروح الإلهى فى اعتقاده ، سار فى جميع الموجودات ولا يزال الإنسان محصورا فى أوهام الجسد . أو فى أوهام المادة على العموم . مادام معتمدا على الحواس أو على العواطف أو على التفكير فى إدراك ما حوله . ولكنه يرتقى إلى مرتبة من الوعي أعلى من مراتب التفكير عند ما يدرك الروح خالصا منزها من هذه الأوهام .

فهو لا يصل بالحس إلى شيء أرفع من المادة وقد يرتقى بالتفكير إلى شيء أرفع مما يدركه الحس ولكنه لا يتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة العقل المنطقي ، وهي مرتبة التأمل والانقطاع بالوجدان عن كل ما يحيط بالإنسان .

ففي هذه المرتبة يستطيع الإنسان أن يسيطر على جسده ويسيطر على الطبيعة ويرتقى إلى الحالة التي يقهر بها المادة ويصنع الخوارق ويخالف العادات ، ثم يقول نقلاً عن غاندى « إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياماً ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة ، لأن الصلاة هي من صميم قلب الحياة الإنسانية » .

وإذن فسيطرة الإنسان على جسده وقعه لشهواته وتحليه بالفضائل . والتجائه إلى الله . يتيح له فوق الإلهام وفوق المعرفة قوة خارقة يسيطر بها على الطبيعة ويرتقى إلى حالة تقهر المادة وتصنع الخوارق .

يقول الإمام الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » مدلاً على صحة الإلهام وأثره في الأرواح .

(لو لم ير الإنسان المغناطيس وجذبه للحديد ، وقيل له ذلك لاستنكره ، وقال لا يتصور عقلاً جذب الحديد إلا بخيط يشد عليه ويجذب به . فإنه المشاهد في الجذب ، حتى إذا شاهده تعجب منه . وعلم أن علة قاصر عن عجائب القدرة) .

ثم يقول . وفي خزائن القدرة عجائب وغرائب يشكرها من يظن أن لا وجود إلا لما يشاهده ،

وجاء في كتاب « الفلسفة القرآنية » للعقاد تعليفاً على كلمة الغزالي . وما يقال عن جذب المغناطيس يقال عن جذب النكواكب أو تجاذبها على هذه الأبعاد الشاسعة في السماء فإن انتقال التأثير من الجاذب إلى المجذوب حقيقة لا ريب فيها ، ولكنها لا تفسر إلا بالفروض والتخمينات ، وتقدير الوسائل التي لا يقبها العيان ولا يقع بها البرهان .

والعجيب أن أدعاء العلم والعقل يشاهدون هذا وأمثاله ويسمعون تعليقه الذى يختلف فرضاً بعد فرض ، وتخميناً بعد تخمين فيسكتون ويلبسون أنه معقول ومفهوم . ولكنهم يستكثرون تأثير الروح فى الأرواح ، وتأثير العقل فى العقول ، لأنهم يريدون أن يلبسوا بأيديهم كيف تؤثر وكيف تتأثر . ولا يقبلون هنا ما يقبلونه فى عالم الحس والعيان .

ثم يقول : وأقرب الكائنات إلى الله هو الكائن الذى يعنى ذاته ويعنى موجدته — أى الإنسان — ويستمد منه قبلاً من القدرة الإلهية .

أجل لا حيلة لنا فى هؤلاء الناس الذين يؤمنون بعجائب الظواهر الطبيعية التى تبنى على الفروض والتخمينات ، ولا يريدون أن يؤمنوا بمثلاتها فى عالم الروح ، بل يريدون تمتعاً أن يلبسوا بأيديهم قدرة الله الخارقة . ويريدون أن يلبسوا بأيديهم كيف يلبس الله من أحب من عباده وكيف يعلمهم من لدنه علماً . لا حيلة لنا فى هؤلاء وأمثالهم من المتفلسفين على جهالة . إلا أن نقول لهم كلمة شكير على لسان هملت : إن السماء والأرض ياهو راثير . تحويان من الأمرار ما لا تعلم به فلسفتك .

هل تتعارض المعارف الصوفية

مع القرآن والسنة . . .

روى أحمد والبخارى وأبو داود والنسائي « أن الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل . هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس . فقال : لا والذي فلق الحبة . وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه ،

وكلمة الامام علي كرم الله وجهه مفتاح من مفاتيح التصوف ، أو مفتاح من المفاتيح التي تؤدي بنا إلى فهم حقيقة الروح الصوفي .

لأن عماد التصوف وقوامه في المعرفة . هو الفهم في الدين ، والبصر بالتأويل . فهما يعطيه الله لمن ارتضى من عباده . واستنباطا يهدي إليه الله من أحب وأصطفى .

وهذا الفهم ، وذلك الاستنباط من منح الله لعباده . فلسنا إذن في حاجة إلى أن نقول . إن شرطهما هو موافقتهما للكتاب والسنة . فذلك بديهته من بديهات العقول .

فكما أن العبادات في التصوف قوامها تطوع لما بعد الفرائض والنوافل كذلك علم الباطن هو معان واستنباطات وفهم في القرآن فوق ما يعطيه العلم الظاهر .

فليس هناك مثلاً فهما باطنياً يزيد أو ينقص من الفرائض ، ولا فهما باطنياً يعطل شيئاً من الشرائع وإنما هو فهم في المعنويات ، وفهم في الكمالات التعبدية والتحليلات الأخلاقية .

يقول الشعرازي في الطبقات الكبرى :

• ثم اعلم أخى أن علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب الأولياء . حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تمجيز الألسن عنها ، نظير ما انقذح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علوه من أحكامها ، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة الملل وحطوط النفس ، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النجوى . فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً فقد صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق . كما أن من جعل علم المعاني والبيان علماً مستقلاً صدق ومن جعله من جملة علم النجوى فقد صدق . ثم يقول • ولكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية . ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء ، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداب ومكروهات .

وتلك الكلمة للشعراني من الآيات التي توضح موقف التصوف من الشريعة الإسلامية ، ومن الآيات المبينات للنهج الصوفي الصادق .

فليس من رسالة التصوف البحث في فرائض الأحكام الشرعية . ولا البحث في الصفات الربانية ولا الجسدال والحوار في المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية .

ولأنما التصوف تطوع دائم للعبادة ، وهذا التطوع التعبدى جعل أربابه يستنبطون ألواناً من الأدب يحملون بها أنفسهم وهم قيام بهذه العبودية ، وألواناً من اتواجبات في الذكر والخلوة والسلوك ، وألحاناً من المعرفة تفرقت لهم من مراقبتهم لأنفسهم وتفتيشهم لقلوبهم وتجلت لهم في مواجيد الانس والمحبة ، كما أنهم فرضوا على أنفسهم زهداً خاصاً جعل لهم حسابة

مشرقة وذوقاً ملهما في طرائق العبودية . لأنهم ينشدون الكمال في تلك العبودية، ولأنهم آمنوا بأنها هدف الحياة وغاياتها العليا . أو كما يقول الحسن البصري . إن في زماننا رجال ينظرون إلى مسائل كأنها شعرة ولقد أدركنا رجالاً كانوا يعتبرونها من الكبائر ، وكان الامام أحمد بن حنبل يقول : إظهار المحبرة من الرياء ، وهو معنى في التواضع لا يعرفه إلا الأصفياء . ويقول رسول الله صوات الله وسلامه عليه : لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس . رواه الترمذی .

ذلك محور النصوص الصادق وتلك دائرته . وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة وأحكامها . كذلك يحفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحها . وكما أباح للفقهاء الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع . والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص . وترك أمره للاجتهاد والاستنباط فكذلك للعارفين . أن يستنبطوا عما هموا وعرفوا وذاقوا أحكاماً في الأمور التي لم ينص عليها . ولهم أيضاً أن يستنبطوا آداباً وأذوقاً ونهجاً للمريدين والعابدين .

فللنصوف علومه واجتهاداته التي ينفرد بها . ولتلك العلوم أثرها ومكاتها ومقامها بداخل حدود التشريع الإسلامي الظاهري .

ويقول الشعراني . فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة . وكيف يخرج . والشريعة وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة .

ثم يقول . ولكن أصل استغراب من لا المام له بأهل الله أن علم النصوص من عين الشريعة . كونه لم يتحرف في علم الشريعة . ولذلك قال الجنيد . علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة دال على من توهم خروجه عنها في ذلك الزمان أو غيره . وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله

عز وجل إلا من تبحر في علوم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها . وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك . فكل صوفي فقيه ولا عكس . وبالجمله فا أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم .

صدق الشعرائي . فإنه لا ينكر التصوف إلا من جهله علماً وذوقاً . ولا ينكر طريق التصوف إلا عويلم ليست له ضلالة في العلم . ولا مكانة في المعرفة ، أما العلماء حقاً من رجال الفقه والاجتهاد والفتيا فقد سلخوا للتصوف علماً وذوقاً . سلخوا له لا بصدقه غيب . بل سلخوا بالتفوق والزعامة . سلخوا له بأنه أفق لا تصعد إليه أجنحتهم لأن لا يجنحته تفوق غلاب سره في تعبدها ، كما أن سر علومه في الهامها .

يقول القشيري في رسالته مدلاً على مكانة التصوف والمتصوفة :

« لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلخوا لذلك الشبغ وتواضعوا له وتبركوا به ولو لا مزية وخصوصية للقوم اكان الأمر بالعكس » .

وبسوق الشعرائي الأدلة على كلمة القشيري فيقول « لقد أذعن الإمام الشافعي لشييان الراعي ، حين طلب منه الإمام احمد ابن حنبل أن يسأله عن: ينسى صلاة لا يدري أى صلاة هي ، فقال شييان — هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزاؤه أن يؤدب » .

وكان احمد بن حنبل يرسل إلى أبي حمزة البغدادي دقائق المسائل ويقول افي في هذا يا صوفي ؟ وكان يقول لابنه ناصحاً وموجهاً . عليك بملازمة المتصوفة ، فانهم بلغوا مقاماً في الإخلاص لم تبلغه » .

ويقول يحيى الدين شيخ المتصوفة الأكبر في الفتوحات ، إن طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان والتقوى . . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . والرزق نوعان روحانى وجسمانى . وقال تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » أى يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائل من العلوم الإلهية .

ثم يقول فعليك يا أخى بالتصديق والتسليم لهذه الطائفة ولا تنوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة أن ذلك إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن لظاهر الآية والحديث مفهوم بحسب الناس وتفاوتهم بالفهم . فمن المعلوم ما جلب له الآية أو الحديث ودلت عليه في عرف اللسان . ثم افهام أخرى باطنية تفهم عند الآية أو الحديث لمن فتح الله عليه . .

ثم يقول « ولا يصدنك عن تلقى هذه الممانى الغريبة من هذه الطائفة الشريفة قول ذى جدل ومعارضة . أن هذا إحالة لكلام الله تعالى وكلام رسوله . فإنه ليس ذلك بإحالة . وإنما يكون إحالة لو قالوا . لا معنى للآية الشريفة والحديث إلا هذا الذى قلناه . وهم لم يقولوا ذلك . بل يقرون الظواهر على ظواهرها . مراداً بها موضوعاتها . ويفهمون عن الله تعالى في نفوسهم ما يفهمهم بفضله ويفتحه على قلوبهم برحمته ومنتته . ومعنى الفتح في كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوا ، كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح لما جاء به رسول الله من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة . إذ الولي قط لا يأتي بشرع جديد . وإنما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب والسنة الذى لم يكن يعرف لأحد من قبله . ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق . ويقول هذا قول لم يقله أحد . على وجه الذم لهذا القول . .

فالتصوفة إذن يقولون في صراحة وجلالة ، إنهم لا يحيلون الظاهر عن

ظاهره بل يقرون الظواهر على غواهرها . ولا يقولون إن ما المهور
أو استنبطوه من الآية أو الحديث هو معنى الآية أو الحديث ولا معنى لها
إلا هو . وإنما يقولون هذا ما نرى . أو هذا فتح الله به علينا . ولك أن ترضاه
ولك أن ترفضه . ولك أن تؤمن به ولك أن تدعه .

ويقول حجة الإسلام وحجة التصوف الإمام الغزالي .

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير . ونحن نعرفك
علامتين له . العلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة
بميزان الشرع موقوفة على توفيقاته لإراداً وإصداراً وإقداً وأحكاماً .
إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها . ولا يصل
فيه إلا من واطب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهل الفرائض
فان قلت : فهل تنتهي رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات
ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه
الأمور . فاعلم أن هذا عين الغرور . وإن المحققين قالوا - لو رأيت إنساناً
يطير في الهواء ويمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه
شيطان وهو الحق » .

ثم يقول إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى
خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير وأخلاقهم أذكى الأخلاق . فان جميع
حركاتهم وسكناتهم في ظاهرم وباطنهم مقبسة من نور مشكاة النبوة .

وماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وأول شروطها . تطهير القلب
عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله وآخرها الفناء
بالكلية في الله . .

أجل ماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب عما

سوى الله ، ومفتاحها استغراق القلب استغراقاً كاملاً في ذكر الله وآخرها
الفناء في الله حباً وعبادة ، لقد أضنى التصوف على الوجود صورة جميلة
مشرقة ، والبس الانسان صورة نورانية طاهرة ، وجعل للحياة هدفاً وغاية
قدسية عالية . وأى الغايات أسمى على من التسبيح والتجوى ، وفناء النفس
في محارب الانس والتقوى .

بقول سهل التستري ، أصول طريقنا سبعة . التمسك بالكتاب والافتداء
بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة
وأداء الحقوق ،

ويقول أبو الحسن الشاذلى ، إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة
فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك . إن الله تعالى ضمن لى
العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنهما فى جانب الكشف ولا الإلهام
ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام
ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة ، ويقول أبو سعيد الخراز
« كل باطن خلافه الظاهر فهو باطل »

هذا هو العلم الباطنى فى التصوف وتلك شرائطه وحدوده ، فبأى آية
من آياته يكذب المدهنون . وبأى صورة من صورهم يحمد المنكرون .

ويقول الشعراى متعجباً من خصوم التصوف وأعدائه « ما بلغنا قط
عن أحد من القوم نهى أحداً عن الصلاة والزكاة والحج والصوم أبداً .
ولا تعرض لمعارضة شئ من الشرائع ، وكيف يترك الولى ما كان سبباً
لوصوله إلى حضرة ربه ، إنما يبحث الناس على الأسباب الكثيرة من أسباب الوصول
فأبقى وجه الانكار . إلا على مواجيدهم وأفهامهم ، وتلك أمور لا تعارض
شئاً من صريح السنة ، والأمر فى ذلك سهل ، فمن شاء فليصدقهم ويفتدى

بهم كقلى المذاهب. ومن شاء فليسكت، ولا ينكر لانهم مجتهدون فى الطريق
والمجتهد لا يقدح انكاره على مجتهد آخر .

ذلك فصل الخطاب فى حقيقة العلم الدنى ، وتلك رسالته لدى المتصوفة .
لأنهم قوم مجتهدون كأئمة المذاهب الفقهية ، فان أئمة المذاهب قد اجتهدوا
فى أحكام الفروع واختلفوا . ولم يقدح اختلافهم فى عقيدتهم ، ولم يقدح
اختلافهم فى اجتهدهم .

فكذلك المتصوفة ، قوم اجتهدوا فى أمراض القلب وأدويتها ، وآداب
العبودية وواجباتها وخفايا النفس والهلماتها ، ورفائق المحبة وأسرارها .

قوم أخذوا عقيدتهم بقوة وعزم ، فطوعوا لله تطوع أولى القوة والعزم
وأخلصوا التوجه إلى الله اخلاصا جعلهم يتحرون الكمال ، فهم أهله ورجاله .
واجتهدوا فى فلسفة الكمال فكونوا من اجتهدهم نهجا لهم وسبلا وطريقا
له قواعد ، كما له شرائطه .

وان كان الرجل — الجنتل — بلغة العصر . هو الرجل الممتاز
بخلق وعادات سامية خاصة ، واضحة الأثر فى حركاته ومعاملاته وصلاته ، بل هو
الرجل الذى فرض على نفسه آدابا وقواعد فى السلوك خاصة به ، يتميز بها ويعرف .

فكذلك الصوفى هو الجنتل فى العبودية الربانية . الممتاز بخلق
وعادات سامية خاصة واضحة الأثر فى حركاته ومعاملاته وصلاته . بل هو
العابد الذى فرض على نفسه فى العبودية آدابا ونهجا يتميز به ويعرف .

فإن كنا رضينا من رجال الدنيا آدابهم التى فرضوها على أنفسهم ،
ورضينا من رجال الفقه إجتهدهم فى الأحكام الفرعية ، وإجتهدهم فيما لم ينص
عليه ، حتى لأنهم حللوا وحرروا ، وقالوا هذا واجب ، وهذا مكروه . وهذا
فرض ، وذاك سنة . ولم يقدح اختلافهم فى أحكامهم . ولم يقدح اجتهد
فقيه على اجتهد مخالفه .

فكيف إذن نفترض على قوم اجتهدوا في العزام ، واجتهدوا في التطوع واجتهدوا في التعب واجتهدوا في نشدان الكمال ، وهم فوق ذلك لم يلزموا غيرهم بما افترضوا على أنفسهم ، بل صرحوا بأنهم أولى عزم ، وليس الناس كلهم سواء ، وما ينبغي أن يكونوا .

إن الفقهاء قد أجمعوا اجتهدوا إلى فهمهم في كتاب الله وسنة رسوله ، واستنبطوا أحكامهم منها ، وكذلك المتصوفة يرجعون باجتهدوا واستنباطهم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إليهما ، فهم والفقهاء إذن في صف اجتهدوا واحد ، إلا أنهم أكمل ، لأن السبل لم تفرق بهم عن الغاية كما تفرقت رجال الفقه ؟ بل كان سيلهم واضحاً محمداً محرراً ، لأنهم ألقوا بعرائهم في نشدان الكمال في محاريب العبودية والطاعة ، واتجهوا إلى الله سبحانه بقلوبهم وأرواحهم وأحاسيسهم وعقولهم ، فلم تفرق بهم سبل ، ولم تجمع بهم نزوة .

ومن عجب أن بعض الفقهاء يرمون التصوف بالجنوح والتطرف وابتكار ألوان في المعرفة ، مغرقة في الخيال ، مغرقة في الشذوذ ، مع أن الشذوذ والتطرف إن كان في ثمة طائفة من الطائفتين فهو في الفقهاء الذين شغلوا أنفسهم وشغلوا العالم الإسلامي معهم عن نور كتابهم المقدس ، بحديثات وتفرعات لا هدف لها إلا الجدل وحب الغلبة .

فقد افترضوا مسائل لا تقع ؟ بل لا يتصور وقوعها ؟ بل يستحيل في العقل وجودها ، وعاشوا في محاربا مجادلين مختلفين .

جاء في شرح مسلم . وما زاد الفقه صعوبة ما اتسع فيه أهل المذاهب من التفرعات والفروع حتى إنهم فرضوا ما يستحيل وقوعه عادة . فقالوا لو وطأ الخنثى نفسه فولد هل يرث ونده بالأبوة أو الأمومة أو بها ؟ ولو توأله ولد من بطنه وآخر من ظهره ، لم يتوارثا لأنهما لم يجتمعا في بطن ولا ظهره ،

ويقول السنوسى معلقاً على هذا الجرح الفقهي « ولو اشتغل الإنسان بما يخصه من واجب ، وتعلم أمراض القلب وأدويتها واتقان عقائده والتفقه على معنى القرآن والحديث ، لكان أركى لعله وأضوأ لقلبه .

وإن كان القلم قد جرى بنا إلى نقد الفقهاء ، فإنما ساقنا إلى ذلك المقارنة التي اقتضاها السياق ، ولنبرهن على أن الجرح إن وجد في بعض أدياء التصوف الذين جعلوا التعبد فلسفة فقد وجد مثله في بعض من انتسب إلى الفقه ، وإن كان الصادقون من الفريقين هم صفوة الأمة الإسلامية .

ونعود فنقول . إن الكشف الباطني في التصوف قائم على الكتاب والسنة . مقيد بهما وإن هدفه وغايته إبقاء الجدوة التعبدية الإيمانية مشرقة وضاءة في القلوب الإسلامية . وبذلك تحددت رسالة التصوف . ووضحت أهدافه .

وإذن فليس الكشف الباطني والعلم اللدني . شطحاً ولا إلهاماً . ولاطلاسماً ولا كلمات مهروزة مجنحة ، ولا فلسفات جامحة ، كما زور المزورون في تاريخ التصوف ، أو كما جمعم الادعاء الدخلاء الذين مشوا في موكب التصوف وارتدوا بارديته وهم ليس منه .

إن عماد العلم اللدني وضابطه وساكه . لدى المتصوفة ، هو كتاب الله وهدى رسوله ، فكل من انحرف بقوله أو بعمله فقد برىء منه التصوف ، بل هو أصلاً ليس من أهله .

ومن شاء أن يعرف الصوف الصادق من غيره فليجأه إلى هذا المبدأ الذي هتف به سادته الكل وأئمة القادة ، وحينئذ يتميز الخبيث من الطيب ، ويبين الزائف من الصادق .

هذا هو الميزان الذي عنه الشرافى بقوله « إن طريق القوم محررة

على الكتاب والسنة كتحرير الذهب ، أو كما يقول محي الدين ، من روى من
يده ميزان الشرع لحظة واحدة هلك . .

ولقد كان شيخ الإسلام العز بن عبد السلام إذا سمع حديث أبي الحسن
الشاذلي صاح : هذبوا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله . .

وذهب أبو العباس بن سريج إمام الفقهاء إلى حلقة الجنيد ليناقشه ويجادله
فاستمع إليه صامتاً ثم خرج إلى أصحابه قائلاً : لا أدري ما يقول ، ولكن
لكلامه صولة ليست بصولة مبطل . .

أجل إن للتصوف صولة هي صولة الحق ، وإن على الكلم الصوفي
لطلاوة ، هي طلاوة الألحان القريبة العهد من الله ، لأنها من إلهامة ومن
يتابع رضاه .

التصوف المقتري عليه

فإذا انتبهنا من توضيح العلم الباطني الصوفي ، وأنه فهم يعطى لذوى البصائر في كتاب الله وسنة رسوله ، وأنه مقيد بالكتاب والسنة لا ينحرف ولا يميل عنهما .

وأن رسالة المتصوفة ، أنهم فوق تعبدتهم يجتهدون في أمراض القلب وأدويتها وآداب العبودية وواجباتها ، وخفايا النفس وإلهاماتها ، ورقائق المحبة وأمرارها ، وأن اجتهدهم في هذه المثاليات كاجتهاد الفقهاء في الفروع والسنن والواجبات التي لم يرد فيها نص صريح قاطع ، وكما حفظ أئمة الفقه حدود الشريعة الإسلامية بإقامة أحكامها ووضع دستورها كذلك حفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحانياتها ، وطهارتها الخلقية . وكالاتها النفسية .

إذا انتبهنا من هذه الخطوة التمهيدية في سبيل تجلية التصوف وتنقيته بما دس عليه وأدخل على محرابه ، كان لابد لنا قبل الحديث عن كبرى المسائل التي ألصقت به ونسبت إليه رغم طهارته ، وبراهمه منها ، أن نتحدث قليلا عن الافتراء والدس ، بل عن المؤمرات التي دبرت لنشويه التاريخ الإسلامي كافة ، والعقائد التبعية منه خاصة ! وتاريخ الإسلام كعقيدة وفكرة ، وتاريخ الإسلام كنظام عالمي ، كل هذا لم يكتب إلى يومنا كتابة عادلة منصفة . كتابة تجلوه بخصائصه وفضائله الكبرى .

لقد شوه المؤرخون ، بل شوه القامرون التاريخ الإسلامي عن عمد ، بما دسوا عليه وبما نسبوا إلى كبار شخصياته من عقائد وكلمات وأفعال ، كبار شخصياته سواء منهم أئمة الفكر أو رجال الفقه أو قادة الحرب ، أو رجال التصوف ، بل إن الخلفاء الراشدين أنفسهم لم يسلم تاريخهم من

التزييف والدس ، بل لقد دس في تفسير القرآن ، ودس في أحاديث الرسول ما يبرأ منه القرآن وما يبرأ منه الرسول . ولولا أن الله جلّت قدرته وتعالى حكمته حفظ كتابه الكريم ، لما تورع المفترون عن الدس والتزييف .

إن العالم الإسلامى اليوم وهو على أبواب وثبة من وثباته التاريخية يجب أن يتنبه لهذا ، يجب أن يتوافر العلماء والكتاب والباحثون على التاريخ الإسلامى ليعرضوه عرضاً جديداً كريماً وليكتبوه من جديد على ضوء العلم والمعرفة والروح الإسلامى النقى الملمه .

يقول الامام ابن الجوزى فى المنتظم

« ولما جاء النبى صلوات الله وسلامه عليه . وقهر الأملاك وقمع الألحاد ، اجتمع جماعة من التنوية والملاحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فاعملوا رأيهم وقالوا . ثبت عندنا أن جميع الانبياء كذبوا وخرقوا على أمهم . وأعظم الكل بلية علينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فانه نبغ بين العرب العظام وبخدهم بناموسه فنصروه وبذلوا أموالهم وأنفسهم وأخذوا بمالكنا . وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه ومنهم مقبل على كسب المال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاهى . وقد ضعفت أبصارهم ، ونحن نطمع فى أبطال دينهم إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم فليس إلا الدس فى آرائهم والالتواء إلى فرقهم لنستعين بهم على أبطال دينهم . »

ذلك ما يقوله الامام ابن الجوزى كاشفاً به عن لون من ألوان التزييف المتعمد فى التاريخ الاسلامى ، وكاشفاً به عن لون عجيب من ألوان الهدم والتضليل فى صفوف المسلمين .

فان هؤلاء المآمرين من الملاحدة وأصحاب المذاهب الفلسفية المنقرضة قد جعلوا مؤامرتهم الكبرى ذات شعبتين ، الأولى مهمتها الدس والافتراء

بتزييف الآراء وصوغ العقائد الباطلة ونسبتها إلى رجال الفكر والعقائد للبلبة والافساد.

والشعبة الثانية تندس بين صفوف الفرق والمذاهب الاسلامية لتوقع بينها وتضخم من خلافاتها وتزييف عليها مبادئها وعقائدها .

ولون آخر أعجب من هذا . تكفل به رجال مسلمون ؟ أغرموا بأن يلبسوا آرائهم القوة والمكانة فنسبوها إلى الأئمة والقادة . يقول ابن الفراء في طبقاته نقلاً عن أبي بكر المرزوي ومسدّد، وحرب: أنهم قد رويوا الكثير من المسائل ونسبوها إلى أحمد بن حنبل : وبعد أن يفيض في ذكر هذه المسائل يقول :

« رجلان صالحان بلّيا بأصحاب سوء جعفر الصادق وأحمد بن حنبل . أما جعفر فقد نسبت إليه أقوال كثيرة دونت في فقه الشيعة الامامية على أنها له وهو برىء منها ، وأما أحمد فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها ، وإن هذا بلا شك يثير الريب في نسبة الفقه الحنبلي إلى أحمد . »
وابن الفراء عالم وفقه ومؤرخ حجة ، ومع هذا فهو يتشكك إلى درجة الريب في نسبة الفقه الحنبلي إلى أحمد بن حنبل ؟

وأنه لشيء عجيب ومذهل حقاً أن يزيف على الامة الإسلامية مذهباً من مذاهب الكبرى وأن يقوم بهذا التزييف أصدقاء الامام نفسه وأتباعه . وجاء في رسالة الاسلام ^(١) ، أن خصوم الاسلام من الامم المختلفة لما انهزموا احرىوا وتحطمت دولهم ، انتهزت بقاياهم الخصومات السياسية الاسلامية فظهروا في صور شتى وألوان مختلفة مرة في السياسة باثارة الاحقاد وبث الفتن والمكائد وإذكاء نيران العصية ، ومرة بافساد العلم والفكر عن طريق الوضع والافتراء والتأويل الفاسد وإثارة الشبه والحوض فيما نهى الله ورسوله عنه .

كاغذيت هذه الخلافات وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة والاحاديث الموضوعية والَاخبار المفتراة، وامتلأت كتب التفسير والحديث والمغازي والمناقب بما لا يحصى من الَاكاذيب . فأصبح بجوار كل آية من كتاب الله رواية من الروايات تلوى بها عن مقاصدها . وبجوار كل حديث نبوى عشرات الاحاديث الكاذبة تزاحمه وتوابه ، وفي تاريخ كل عظيم أو مفكر أو عابد شائبات تنال منه . .

ولو ذهبنا نتقصى ألوان التزييف في التاريخ الإسلامى لما وسعنا هذه العجالة التى خصصناها للتصوف والمتصوفة .

التصوف والمتصوفة اللذان كان نصيبهما من الدس والافتراء أعظم وأخطر من سواهما . لأن المزيفين أدركوا أن التصوف هو روح الإسلام ، وأن المتصوفة هم قوته الروحية الضخمة، وشعلته الوضاء المشرقة فأرادوا أن يطفئوا هذا النور ، وأن يلقوا فى هذا البيان المبين .

يقول السهروردي فى عواف المعارف .

« ثم أن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ومحبتى لهم، علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة حدا بى أن أولف أبواباً فى الحقائق والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتقدوه . شعر بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتمدوه . حيث كثر المشبهون واختلفت أحوالهم وتستر بزيمهم المتسترين ، وفسدت أعمالهم ، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول علمهم سوء الظن ، وكاد لا يسلم من وقعة فيهم وطعن . »

ويقول محي الدين فى الفتوحات « بما يفتح باب قلة الاعتقاد فى أولياء الله وقوع زلة بمن تزيا بزيمهم وانتسب إلى مثل طريقهم ، والوقوف مع ذلك

(١) قل من الامام احمد أنه قال : ثلاثة كتب ليس لها أمل ، المازى والملاحم والتفسير .

من أكبر القواطع عن الله عز وجل ، قال تعالى . ولا تزر وازرة وزر أخرى .
أجل أكبر القواطع عن الله عز وجل أن يلتبس أمر الزائف من
الصحيح في التصوف على الناس ، فيرى المتعجل التصوف قاطبة بالافك
والبهتان .

لقد دس على التصوف المزيّفون من رجال التاريخ ، ودس على التصوف
أهل الحاد وخصوم الاسلام ، وشوه التصوف رجال مغرضون ، تزبوا بزيه
وانتسبوا إليه فشوهوا وجهه بأفعالهم . وشوهوا سيرته بأقوالهم . وهو
منهم براء . وهو لهم خصم واضح الحجة .

يقول الشعرائي

« والانكار على هذه الطائفة لم يزل في كل عصر . بسبب الدس والافتراء .
ولعلو ذوق مقامهم على غالب العقول . ولكنهم لكما لهم لا يتغيرون كما
لا يتغير الجبل من نفخة ناموسة . »

ويقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي . لقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة
بالحلق . خصوصاً أهل الجدل والافتراء ،

ولقد خصص الشعرائي بحثاً طويلاً جليلاً في مقدمة البواقيت والجواهر
تناول فيه الافتراء على المنصوفة كما تناول فيه الخصومات التي قامت حولهم
وأحاطت بهم .

يقول الشعرائي في هذه الدراسة

« إنه ما من نبي أو ولي إلا وابتلى بالخصومات كما ابتلى بالحدة والداسين
ثم يضرب المثل بالأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . الذين ابتلوا
بالخصومات والافتراءات ونسبت إليهم صفات هم منها الطهرة الأبرياء . »

ثم كبار الصحابة رضوان الله عليهم « كعبد بن أبي وقاص ، الذي اتهمه
أهل الكوفة بأنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة . وعبد الله بن الزبير اتهم
بالرياء في صومه وعبادته . »

ثم التابعون والائمة . حيث ضرب أحمد بن حنبل حتى تمزق جسده وتلف . ونسبوا إليه الكفر تارة . والجهل تارة أخرى . وأبو حنيفة الذى جعله خصومه من المرجئة حينا ومن المبتدعين أحيانا . والذى اضطهده الخلفاء وعذبوه وجلدوه بالسياط ورموه بالكباتر ، واستخفى ماله خمسا وعشرين سنة لا يخرج بلعة أو جماعة خوفا من خصومه الذين ملؤا الدنيا حوله صياحا وانهاما . وعانى الشافعى ما عانى فى مصر والعراق مما أفسح له التاريخ مكانا ويانا .

ثم يقول ، وما من صوفى إلا وأحاطت به عصابة السوء والأفك تجريحا وتشهيرا ودسا واقترام . فقد نفوا البسطامى سبع مرات من بلده بتهمة الكفر والزندقة . وأحلوا دم ذى النون المصرى . وشهدوا على الجيد بالكفر والالحاد ، ودسوا على الغزالى فى الأحياء عدة مسائل تنبه لها الفاضل عياض وأرشد إليها وأمر بإحراقها ، ودسوا على محيى الدين فى الفتوحات ليقعوا فيهان أراد الله إحلاله من جهلة المتصوفة ، وإن الشيخ محيى الدين من أكابر الأولياء والراشخين ، فرجما قال لهم إبليس إن ما فى كتبه لبس مدسوسا عليه ، وإنما ذلك كان اعتقاده ، ويكفيكم فى الدين ، اتباع هذا الرجل الجليل . فعظمه فى أعينهم حتى لا يتوقفوا فى اعتقاد ما يحدونه فى كتبه من المدسوس .

ثم يقول .

« ولقد تنبه لما فى كتب محيى ، من الدس والافتراء ، الفير وزبأدى وصاحب نفخ الطيب ، ثم يقول أيضا . إنه عندما أخذ فى تأليف مختصر للفتوحات رأى فيها أشياء كثيرة لا تتفق مع ما عليه أهل السنة والجماعة فذفها وتوقف فيها . ولم يزل كذلك حتى قدم عليه الشيخ شمس الدين محمد ، فذاكره فى ذلك فأخرج له نسخة من الفتوحات التى قابلهما على النسخة التى عليها خط

الشيخ محي الدين نفسه « بقونية » فلم ير فيها شيئاً مما توتف عليه وحذفه .
ثم يقول . فعلت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة
التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة . كما وقع ذلك
أيضاً في كتاب الفصوص وغيره من كتب محي الدين . .

ولا عجب فيها برويه لنا الشعراني ، فكتب التفسير تموج بالامرائيليات
الكاذبة التي تنسب إلى ابن عباس مثلاً ، وهو منها البريء المطهر .
وكتب الأحاديث تزخر بأمواج من الأحاديث الموضوعية والتي نسبها
المزيغون إلى أفضل خلق الله وأصدقهم ؟ !

بل أن الحديث عن التزييف في الأدب العربي لا يزال قريب العهد بآذاننا
حتى أن إماماً من أئمة الأدب المعاصرين . قد تشكك في الشعر الجاهلي كافة .
يقول الشعراني . سمعت سيدي علياً الخواص يقول « ولو أن كمال الدعاة
إلى الله تعالى كان موقوفاً على أطباق الخلق على تصديقهم . لكان رسل الله
صلوات الله وسلامه عليهم أولى بذلك ، وقد خاصهم الناس . فريفاً
يقتلون وفريقاً يأسرون . »

والشعراني نفسه . الذي خصص جهده الأكبر لتنقية التصوف من
الدمس والدخيل . قد دس عليه حياً وميناً ؟ وافترى عليه حياً وميناً ؟ !
يقول الشعراني . « وما من الله به على انشراح صدرى لاتباع السنة
المحمدية فعلاً واعتقاداً ، وانقباض خاطري ضد ذلك من حين كنت صغيراً ،
حتى إنني بحمد الله أتوقف في بعض الأوقات عن العمل ببعض ما استحسنته
بعض العلماء حتى يظهر وجه موافقته للكتاب والسنة . »

ثم يقول « فكذب والله وافترى من أشاع عني من الحسدة ، أنني أشطح
في أعمال وأقوال وعقائدي عن ظاهر الكتاب والسنة مع أن أحداً من
هؤلاء الحسدة لم يجتمع بي قط ، ولا يثبت عنده ذلك بينة عادلة إنما .

بعض الحسدة ، زين له الشيطان ذلك لما عجز أن يجد مطعنا في أفعالي الظاهرة فافترى على بعض الكلمات وداربها ،

ولم يكنفوا مع الشعرائى بهذا ، بل زيفو مقدمة لكتابه كشف الغمة . ونشروها مع الكتاب فى حياته واستعاروا نسخة من كتبه البحر المورود ودسوا فيها كفرات عابثة وأرسلوها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى وأثاروا فتنة فى الأزهر عليه . ولبت التزييف قائما ثلاث سنوات حتى تمكن الشعرائى من إثبات كذب خصومه وتضليلهم .

أما ما زيف على الشعرائى بعد وفاته فتشبهه خنم عجيب سيأتى بيانه فى موضعه من هذا الكتاب .

هذا التزييف ؟ وذلك الدس ، كانا الدعامة الكبرى للهجوم على التصوف والمتصوفة وهذا الدس وذلك التزييف هما سر ما نسب إلى التصوف ظلما وزورا من عقائد تمثلت فيها أساطير الملل والنحل كافة .

وفى طليعة هذا الموكب الزائف الشائن . نرى فكرة وحدة الوجود الوثنية وما يتبعها من اتحاد وحلول وفناء الجزء فى الكل كما يدعون .

كما نشاهد فى هذا الموكب الشطحات الفلسفية المضللة التى خلعوا عليها أثوابا برافة خادعة . كدعوى الحقيقة المحمدية التى جعلوها قبة الوجود وأصله وسره ^(١) وما أطلقوا عليه كلمة الجنب وجعلوها مرادفة للتحلل من الشريعة قولاً وعملاً . وما ابتدعوا عن ذل وعجز وأسموه ورعا وزهداً . وما تخيلوا من مذاهب باطنية منحرفة عن كتاب الله وسنة رسوله . وتنادوا بأنها الحق وأنها السر ؟ وأنها الشئ المضمهر المراد المأول .

وكل هذا وذلك يبرأ منه التصوف ، ويبرأ منه المتصوفة بل هم أشد

(١) شرحنا الحقيقة المحمدية شرحا كاملا فى كتابنا — حقائق التصوف الكبرى —
الدراسة من يريد التوسع فى تلك الدراسات .

الناس إنكاراً له وحرباً عليه . لأنهم أقوى الناس إيماناً وأبصر الناس بهدى كتابهم وسنة رسولهم .

لأنهم العابدون المحبون الذين جعلوا الكون محراباً لله . فعاشوا طوال لحظاتهم في صلاة . عاشوا طوال حياتهم بأدب المصلى الذى لا تغفل جارحة من جوارحه عن المناجاة ، بأدب المصلى المتطهر المعلق القلب بربه المقبل بوجهه على خالقه ، فكل صغيرة مهما دقت في ميزانهم كبيرة ، بل كل رخصة لديهم ضعفاء ، لأنهم أولو عزم . وأصحاب العزمات هم المتطوعون أبداً للكمال . وكما لهم في إيمانهم . كما هو في آدابهم . كما هو في إعلاء كلمة دينهم ورسالة نبيهم .

التصوف يرى من وحدة الوجود

وحدة الوجود، وفكرة الاتحاد والحلول . فكرة إلحادية قديمة، عريقة في العبادات الهندية والديانات البوذية . وخلاصتها التي تقر بها إلى القول . أن أصحابها انقسموا إلى فريقين . فريق يرى الله سبحانه وتعالى عما يصفون ، روحا ويرى العالم جسما لذلك الروح ، وإن الإنسان إذا سما وتطهر ، ارتفع فالتصق بالروح — التي هي الله — ففنى فيها . فذاق السعادة الكبرى وظفر بالخلود الدائم .

والفريق الثانى يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله . فكل شيء فى زعمهم هو الله . والله هو كل شيء ، يتجلى تجليا حقيقيا فى كل شيء فى الكون بذاته ، فلا موجود إلا الوجود الواحد ، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعددا حقيقيا واقعا فى نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعددا فى ذات الوجود ، كما أن تعدد أفراد الإنسان لا يوجب تعددا فى حقيقة الإنسان . أو تعدد صور الإنسان الواحد فى المرايا المجاورة لا تحتم تعدده .

تلك هى فكرتهم فى وحدة الوجود . وهى سفسطة لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع . سفسطة نذهب بالشرائع كافة والأديان جميعها ، وتعال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه وتعالى ، وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار . والحياة الآخروية . كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق فنجعل الخلق والخالق شيئا واحداً .

وهذا الإفك الأكبر ، وهذا اللغو الألحادى الفاجر هو الذى قذف به خصوم التصوف المتصوفة . وهم من هم ، إيمانا وكالا وأدبا وخلقا ، ووحداية وتقديسا لفاطر السموات والأرض .

قذف خصوم التصوف المتصوفة بهذا الإلفك . متخذين من حبههم لربهم
تسكة ومقعداً لهذا الاتهام . وركض بهذا الإلفك في محراب التصوف رجال
الاستشراق الذين لبسوا ثوب العلم بالإسلام في ثوب الدفاع عنه

ثم تغلف المستشرقون ، وتغلف المتعاملون من الجهلاء بالتصوف
والإسلام . فقالوا إن للتصوف علاقات وثيقة بيوذا ووثنية الهند ، وإن
وحدة الوجود وفكرة الحلول ، عند المتصوفة أقياس من الصوفية البوذية
ولحات من فلسفة المدرسة الاشراقية .

ونسوا أو تناسوا أن التصوف الإسلامي قام على كتاب الله وسنة
رسوله وهديه . وأن الصوفي المسلم يقرأ في كتاب ربه ، ليس كمثل شيء ،
وهو السميع البصير ، فيقرأ خلاصة العلم الذي يتعلمه طلاب اللاهوت في
سائر الملل والنحل . ويطوى تحت هذا البلاغ المبين كل فلسفة تتشدد ببحث
الذات والصفات والخلق والخالق .

يقول الشمراني في اليواقيت : ولعمري إن عباد الأوثان لم يتجرؤوا أن
يجعلوا آلهتهم عين الله . بل قالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف
يظن بأولياء الله تعالى أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال في حقهم
رضى الله عنهم .

ويقول الإمام محي الدين بن عربي في عقيدته الوسطى : أعلم أن الله
سبحانه واحد باجماع وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو في
شيء . أو يتحد بشيء .

ويقول في باب الأسرار من الفتوحات : لا يجوز للعارف أن يقول
أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب . وحاشا للعارف من هذا حاشاه .

ويقول أيضاً في لوائح الأنوار « من كمال العرفان شهود عبد ورب ، وكل عارف نقي شهود العبد في وقت ما ، فليس بعارف ، وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال ، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده . »

ويقول في الفتوحات « لا حلول ولا اتحاد ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الاتحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ومن دينه معلول .

ويقول في باب الأسرار « أنت أنت . وهو هو . فإياك أن تقول كما قال العاشق ، أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة ، لا والله ، والجهل لا يتعلل حقاً . »

وقال أيضاً « إياك أن تقول أنا هو . وتغالط . فإنك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه .

ثم يقول « لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والمملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى ، لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلهاً ، وصار الحق خلقاً ؟ والخلق حقاً ؟ وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبا ، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً .

ويقول الجنيد شيخ الطريقة في الرد على الفجرة الفسقة أصحاب وحدة الوجود ، إن هذا كلام من يقول بالإباحة . والسرقة والزنا عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة .

وسئل العارف الرباني الإمام سهل بن عبد الله التستري عن ذات الله عز وجل فقال « ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالابصار في دار الدنيا ، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول ، وتراه العيون في المعقبي ظاهراً في ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق

عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدرکه
ينظر إليه المؤمنون بالآبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

ويقول أيضاً مخاطباً الغرور البشرى والوجود الإنسانى : يا مسكين
كان الله ولم تكن ، ويكون الله ولا تكون ، فلما كونك اليوم صرت تقول
أنا وأنا ، كن الآن كما كنت قبل تكوينك ، واعرف فاقة نفسك وحقاتها ،
ونزلها منزلاتها من الذلة والاحتقار . .

ويقول الشعرانى فى المتن :

وبعضهم رأى أن كل شئ فى الوجود هو الله ، وأن عين هذا الوجود
الحادث هو عين الله . من الجهاد والنبات والمقارب والحيات . والجنان
والانسان ، والملك والشيطان ، ويحملون الخالق هو عين المخلوق من خبيب .
ونفيس ومرجوم وملعون حتى إبليس ، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون
ولا من كان فى حبه مجنون . والذى أقوله ، إن إبليس لو ظهر ونسب إليه
هذا المعتقد لنبرأ منه واستحى من الله تعالى ، وإن كان هو الذى يلقى إلى
نفوسهم ذلك

وقد حكبت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء الذين يقولون
هذا القول ، فقال : هؤلاء زنادقة ، وهم أنجس الطوائف ، لأنهم لا يرون
حساباً ولا عقاباً ولا جنة ولا ناراً ولا حلالاً ولا حراماً ولا آخرة ولا لهم
دين يرجعون إليه ولا معتقد يجتمعون عليه وهم أخس من أن يذكرُوا لأنهم
خالفوا المعقولات والمنقولات والمعاني وسائر الأديان التى جاءت بها الرسل
عن الله تعالى ولا يعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقاد هؤلاء ، فإن
طائفة من النصارى قالت المسيح ، بن الله وكفرهم القوم الآخرون ، وطائفة
من اليهود قالت العزيز بن الله وكفرهم القوم الآخرون . فلم يجعلوا الوجود
عين الله تعالى . .

مقام الفناء

وأخطاء الحلوليين ...

تلك هي كفة التصوف في وحدة الوجود . ولعمري إنها لأقوى الكلمات الإسلامية دفعاً لتلك النظرية الوثنية وهدماً لها ، وهي أعلى الكلمات الإسلامية استنكاراً لحوّل ما تنطوى عليه من كفريات وإباحيات ملعونة مرجومة ، حتى إن الشعراني ليقول : إن إبليس نفسه وهو ملهم الخبائث لا يجرؤ على تلك القولة الملعونة « التي ارتكب أربابها أمراً إذا ، تكاد السموات ينفطرن منه وتخز الجبال هذا »^(١) .

ولسائل أن يسأل فكيف إذن نسبت إلى التصوف أو إلى بعض المتصوفة ومن أي باب أدخلها المفرضون ووثب بها الواثبون ؟ . ومن أي باب أيضاً تسللت طوائف الإفك التي رمت التصوف أو بعض المتصوفة بالحلول والاتحاد ؟ .

لقد تسلل المزيّفون والمفرضون إلى المحراب الصوفي بذلك الإفك الأكبر لطفنوا نوره ويحطموا نبراسه متخذين ومن عجب آيته الكبرى وهي المحبة ، أو مقام الفناء تكسفة لأكاذيبهم الآثمة .

فالتصوف قوامه الذكر والعبادة ، والتأمل والطاعة ، وثمرته التجلي والمحبة ، وما يلهم التجلي وما تعلم المحبة ، وبين بدايته ونهايته . أحوال ومقامات ومعارج ونفحات . سرها الترقى الدائم في صفاء القلب ، وإلهامات الروح وإشرافات الحس .

وأول مقامات المتصوف المقبل على ربه ، بل أول مقامات المؤمن العابد

(١) من أراد التوسع في دراسة موقف التصوف الإسلامي من نظرية وحدة الوجود فليراجع

ذلك في كتابنا عن « محي الدين بن عربي »

هو أن يعبد الله كأنه يراه ، فإذا عبده تلك العبادة وتحقق بجلالها ، فهل تظن أنه يرى سواء جل جلاله .

يقول الشعرائي

« ومن يقول لا موجود إلا الله ، فذلك من مقام المريد المتدنى . لأنه من شدة تشقه في الطريق ، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى يصير قلبه محجوباً عن شهود الأكوان كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد ، أو تلف له مال ، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه ، فإذا سئل هل رأيت فلانا ، قال لا . فإذا قيل له : لقد كان أمامك ، قال والله من شدة الهم ما رأيته . »

ثم يقول : وليس مراد المتدنى في الطريق أن ينفي وجود العالم كله كما يظن من لا علم له بأحوال أهل الطريق ، بل مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه حتى حجبته عن شهود خلقه .

وإذا كان النساء الآتي خرجن على يوسف عليه السلام ذهبن عن أنفسهن حتى قطنن أيديهن ولم يشعرن بألم القطع فكيف بذهول من تعلق قلبه بحب ربه وشاهد من آياته الكبرى .

وقد روى القشيري عن الشبلي أنه كان يزور في بداية أمره شيخه الحصري كل يوم جمعة فقال له شيخه يوماً : يا أبا بكر إن خطر في بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة فلا تعد تأتينا فإنه لا يجيء منك شيء . .

ذلك هو أدب الطريق الصوفي الذي يلقيه الشيوخ للبتدين ، أن ينفوا الوجود عن قلوبهم بل عن خواطرهم ، لتحتل كل جوارحهم بذكر الله وحب الله وجلال الله .

تلك معنويات عليا يتفوقها المؤمنون العابدون ، ولا شأن لها بما

أراد المضللون الذين توهموا في هذا القول المنير وحدة الوجود ،
أو الاتحاد والحلول .

لم ينف المتصوفة بهذا القول الإيمان العظيم وجود الكون ولم يتصوروا
بل لم يجعل بخواطرم ، أن معنى ذلك وحدة أو حلول ، أنهم قوم حجبتهم
المحبة عما سوى الله فلم يروا في الكون سواء ، مسألة حسية وجدانية ، ليس
معناها أن الكون قد زال أو فني ، وإنما معناها أن القلب المحب قد استغرقه
جلال محبه الأعظم ولم ير إلا إياه .

يقول الشعراني ، أجمع أهل الحق على أن حقائق الاشياء ثابتة فكيف
يصح نفيها ، إنما العبد يحجب عنها بما دمه من الأمور العظيمة ، قيل للشيلي
ما التوبة ، قال : ألا تشهد في الدارين سواء ، أى لا تشهد في الدارين خالفا
أو ربا أو رازقا أو مؤثرا ومدبرا سواء ، وإن شهدت ليس لأحد وساطة
أو أثرا في عمل ما ، فلا تلتفت إلى ذلك .

وليس معنى هذا أن لا تشهد غير الله أصلا من جميع الاكوان فان ذلك
لا تصح للتقربين وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه (أصدق كلمة
قالها شاعر ، كلمة لبيد)

، ألا كل شيء ما خلا الله باطل ،

أى كالباطل ، من حيث أن كل شيء قائم بالله تعالى لا بنفسه ، فإن شاء
الله أبقاء وإن شاء أذهب في لمح البصر أو هو أقرب .

ذلك فناء المبتدئين أو مقام المريدين أو حجاب السالكين في أول
الطريق ، يحبسون بحب الله عما سواء ، أما الكمل السادة فقد ارتفعوا فوق
تلك الممانى ولم يقفوا مع العقبات ، بل رؤوا الله جل جلاله ورؤوا الكون
أيضا ، وذلك كما يقول محيي الدين ، أكل ألوان العبادات .

يقول السراج الطوسي في اللمع ، غلظت جماعة من البغداديين في قولهم

أنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق . وقد أضافوا أنفسهم
بجهلهم إلى معنى يؤدي بهم إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح
عليه السلام .

فإن وجد في كلام الكل من المتصوفة معنى الفناء ، في الله جل شأنه
فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك . أن الإرادة للعبد وهي من عند الله عطية
ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق ، خروجه من
إرادته ودخوله في إرادة الحق ، وذلك منزل من منازل أهل التوحيد .

وأما الذين غلطوا في المعنى إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا
أن أوصاف الحق هي الحق ، وهذا كله كفر ، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب .
ولكن يحل في القلوب الإيمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره .

ثم يقول في اللمع أيضاً متحدثاً عن مقام الفناء . هو فناء رؤيا العبد في
أفعاله لأفعاله . .

ويقول الهجورى واصفاً الفناء . بأنه فناء إرادة العبد في إرادة الله ،
لأفناء وجود العبد في وجود الله . .

ذلك هو الفصل بين المتصوفة وخصومهم ، فالفناء الصوفي هو فناء
معنوى . لا فناء مادي كما توهم المتوهمون .

يقول القشيري في باب الفناء . ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى
لم يشهد من الأغيار لاعتنا ولا رسماً ولا طلالاً ، يقال أنه قفى عن الخلق
وبقى بالحق . .

ثم يقول . وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال احساسه بنفسه وبهم ،
فإذا قفى عن الأفعال والأخلاق والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما قفى
عنه من ذلك موجوداً . وإذا قيل قفى عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة

والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ولا به وقد ترى الرجل يدخل على ذي سلطان فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلته هية حتى إذا شل بعد خروجه ، من عنده عن أهل مجلته لم يمكنه الأخبار بشئ . .

وهو فناء اجلال وحجب إذن ، لافناء عين ، فناء القلب المستغرق في تواراً الجلال الإلهي عما سواه .

وبروى الشعرا في الطبقات عن الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي وهو يشرح حال المراقبة

« والمراقبة ، لمبد راقب الحق بالحق ، وتابع المصطفى صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأخلاقه وآدابه والله عز وجل قد خص أحبابه وخاصته بأن لا يكلمهم في شيء من أحوالهم إلى نفوسهم ولا إلى غيره ، فهم يراقبون الله تعالى ويألوونه أن يرعاهم .

والمراقبة تقتضي حال القرب والله عز وجل قرب القلوب إليه بما هو قريب منها فهو يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر بماذا يقرب من قلبك .

وحال القرب يقتضي حال المحبة ، وهي تتولد من نظر القلب إلى الله عز وجل وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته . فطوبى لمن شرب كأساً من محبته . وذاق نعيماً من مناجاته . فامتلاً قلبه حباً فطار بالله طاراً . وهام به اشتياقاً ، ليس له سكن ولا مألوف سواه . فهو محب يخرج من رؤية المحبة إلى المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هو بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً بلا علة . والمحبة تقتضي الذكر ، فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل في ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه . وصار كالغافل عن نفسه ثم يغفل عن ذهوله عن نفسه ويفسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الأحاسيس ، فيقال في عن نفسه ويقال في ربه . وهو (٢٢ — الشعرا)

هنا يكون مختطفاً عن نفسه . محواً عن جلته . قائماً عن كله .
سئل أبا يزيد عن عمره فقال أربع سنوات ويحبب البسطامي شارحاً تلك
الكلمة بقوله . حجبت عن الله سبعين سنة ولم أره إلا في السنوات الأربع
الآخيرة . وعليه فالسبعون الأولى ليست من عمرى .

وهذا الشعور الكامل بالتجلي الإلهي والاحساس الصادق بالحب الرباني
يزداد حتى يبلغ الحد الأعلى فيذهب عن الحب وعيه : بل تكاد تذهب عنه
بشريته . ليندو جوهرأ أو كالجوهر وهي الحالة التي يعبرون عنها بالذوق
والشرب والغيبة ويجمع ذلك كله ، كلمة الوجد .

ويعد المتصوفة الفناء في حالة الوجد نهاية سفرهم إلى ربهم فيصبح الصوفي
هنا في قمة فوق العالم لأنه استغنى عنه .

وهذه هي حال البقاء ، والإنسان فيها إنسان كامل ، وهذا موقف لا
يجال للقول فيه أو كما يقول الفزالي : يصل الإنسان إلى حالة يضيق نطاق
النطق عن وصفها .

مقام الفناء وابن تيمية

ومن عجب أن مقام الفناء الذى اتهم فيه المتصوفة بوحدة الوجود تارة والاتحاد والحلول تارة أخرى ، مقام من صميم التوحيد الإسلامى ، بل هو المقام الذى ترسّكز عليه العبادات الربانية كافة حتى إن ابن تيمية وهو خصم التصوف الأكبر ليخصص لشرحه فى كتبه مكاناً لم يخصصه لغيره من موافق الفكر الإيماني .

يقول الإمام ابن تيمية فى كتابه العبودية ^(١) منحدثنا عن مقام الفناء الفناء فى المحبة الإلهية .

(الفناء عن إرادة ما سوى الله . بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا إياه . ولا يتوكل إلا عليه . ولا يطلب من غيره . وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال . أريد أن لا أريد : أى المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالارادة الدينية . وكال العبد . أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أَراده الله . ورضيه وأحبه وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى — إلا من أتى الله بقلب سليم — قالوا هو السليم عما سوى الله . أو عما سوى عبادة الله أو عما سوى إرادة الله . أو عما سوى محبة الله . فالمعنى واحد . وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم . هو أول الاسلام وآخره . وباطن الدين وظاهره) .

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثانى فى مقامات الفناء فيقول :
• وأما النوع الثانى . فهو الفناء عن شهود سوى وهو يحصل لكثير من السالكين . فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبه

ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد . لا يخطر بقلوبهم غير الله . بل ولا يشعرون . كما قيل في قوله تعالى — وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها — قالوا فارغاً من كل شيء . إلا من ذكر موسى . وهكذا كثيراً ما يعرض لمن دمه . أمر من الأمور إما حب وإما خوف وإما رجاء . يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء . إلا بما قد أحبه أو خافه أو طلبه . بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره فإذا قوى على صاحب الفناء هذا ، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده . وبمذكوره عن ذكره . وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن : وهى المخلوقات المبعدة بمن سواه . ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى والمراد فناءها في شهود العبد وذكره . وفناؤه عن أن يدركها أو يشهداها . وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى يضطرب في تميزه . فقد يظن أنه هو محبوبه . كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى حبه نفسه خلفه . فقال : أنا وقعت فأوقعك خلقي : قال : غبت بك عني . فظننت إنك إني . أليست تلك المقامات من حالات الفناء . هى المقامات التى يرى فيها المتصوفة بوحدة الوجود .

يقول ابن تيمية خصم التصوف الأكبر . (فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبه ضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد) .

وهل قال المتصوفة أكبر من هذا القول ومن عجب أن ابن تيمية يهاجم التصوف والمتصوفة لأنهم يقولون : إنهم فى نشوتهم الكبرى لا يرون إلا الله ويذهلون عما سواه ، أى نفس ما يقول ابن تيمية .
إنهم ليرون الله فى كل شيء . ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل شيء . وهذا أكل درجات التوحيد .

ويقول ابن تيمية أيضا في مجموعة رسائله^(١) وأما قول الشاعر في شعره
 أنا من أهوى ومن أهوى أنا
 فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي . كاتحاد أحد المحبين بالآخر ،
 الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه . ويقول مثل ما يقول
 ويفعل مثل ما يفعل . وهذا تشابه وتماثل . لا اتحاد العين بالعين . إذا كان
 قد استغرق في محبوبة . حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر .
 غبت بك عنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة . هى الاتحاد السائغ .

ويقول ابن تيمية أيضا فى الرسائل (روى البخارى فى صحيحه عن أبى
 هريرة عن النبى بقوله تعالى — من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة —
 فقوله من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة . فجعل معاداة عبده الولى
 معاداة له فعين عدوه عين عدو عبده . وعين معاداة وليه عين معاداته .
 ليسا هما شيئين متميزين) .

ويذكر أيضا ابن تيمية حديثا رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن
 النبى . يقول الله تعالى : عدى مرضت فلم تعدنى . فيقول يارب كيف
 أعودك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عدى فلانا مرض
 فلو عدته لوجدتني عنده . عدى جئت فلم تطعننى فيقول : رب كيف
 أطعمك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عدى فلانا جاع فلو
 أطعته لوجدت ذلك عندى .

ولم أجد ردأ على خصوم المتصوفة الذين هاجموا فى مقام الفناء وتلاخوا

منه إلى اتهامهم بوحدة الوجود ، وفكرة الاتحاد والحلول ، أبلغ من هذا التفصيل الراجع لمقامات الفناء الذى كتبه ابن تيمية خصم التصوف الأكبر ، والذى رى المتصوفة بوحدة الوجود . وقد فهم بالاتحاد والحلول متخذا برهانه من كلامهم فى الفناء والمحبة .

ولم أجد شاهدا أكبر دلالة مما استشهد به هو من القرآن الكريم ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، أى فارغا مما سوى موسى .

وقلب المتصوفة لشدة جهم لربهم ، أصبح فارغا مما سوى الله جل جلاله . وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبه بعبد من عباده وأرسول من رسله .
وليقبل بعد ذلك المفروضون ما شاؤوا . . .

جهاد الشرعاني

البحاث الفلسفية والتصوف

لقد حمل الشرعاني أعباء رسالة عليية إصلاحية ، ما أظن أن صوفيا سواه ، بل لا أعتقد أن عالما من المفكرين الإسلاميين حل مثلها أو قام بشبيهها . تلك الرسالة هي التوفيق بين شتيت الآراء والمذاهب والأفكار الإسلامية ، والتقريب بينها بتنقيتها من التطرف ، وإبعاد الدخلاء والزائفين عن ساحاتها ، وباتخاذها دائما موقفا وسطا محددًا كالصراط المستقيم . عمل الشرعاني على التوفيق بين الفقه والتصوف . أوبين الشريعة والحقيقة كما يقال في الاصطلاح ، وخصص لذلك الجانب الأكبر من دراساته وكتبه . كما جاهد للتوفيق بين التصوف ، وبين رجال الكلام والتوحيد ، وأصحاب النظر العقلي من الفلاسفة والمتكلمين ، يقول الشرعاني في كتابه الميزان : « وحاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طائفتي ولم يسبقني إلى ذلك أحد » .

وبذلك انفق الشرعاني مع الغزالي في ناحية ، واختلف معه في الناحية الأخرى ، فقد سعى الغزالي جاهدا من قبله للتوفيق بين الفقه والتصوف ولكنه في الناحية الأخرى حارب الفلسفة بعنف وقسوة لم يهادها ولم يقبل معها تفاهما ، ولم يرض لها حجة .

وهذا الموقف الذي اتخذته الشرعاني شعاراً له ؛ اضطر مكرها للمحاربة والصراع في كافة الميادين الفكرية والساحات العلمية .

فقد حارب الشرعاني وحارب من أدياء التصوف ، من المجاذيب والبهاليل والدرائش ، وكانوا أصحاب الجاه والسطوة في عهده .

كما حارب وحارب من الفقهاء المتزمتين الذين جحدوا على آراءه وكتب أغرمت بالافتراض، وأولت بالجدل والحوار وملئت بكل غريب وشاذ، وحارب وحارب من رجال الكلام الذين ملؤوا الدنيا صياحا وهنافا بأنهم وحدهم مدنة الإيمان وحجابه ، وأن الإيمان الحقيقي الذى يقبله الله هو ما ابتكرته أقداسهم، وما اشترطوا له من قيود وسدود وحدود .

كما حارب الشعرائى أيضا المتفلسفين من رجال التصوف ونازلهم منازلة قاسية ، حتى إننا نراه أحيانا يهاجم محي الدين ، وهو المحب الأكبر والتليذ الأمين لمحي الدين. ويهاجم الغزالى مع إجلاله العظيم لحجة الاسلام ، ويهاجم جمهرة من سادة المتصوفين القدامى مع احترامه لهم وتقديره . ولكن الشعرائى يهدف لغاية أكبر من الحب والاجلال ، والتقدير . للسابقين من المتصوفة . كان يهدف إلى حماية العقول العامة وأشباه العامة فى عهده من صولة الآراء الصوفية ، وهى صولة لا يعرفها إلا من ذاق وعرف . وهى صولة أكبر من أن تطبقها العقول الضعيفة ، أو تختملها القلوب الجامدة .

وعصر الشعرائى كان لا يطبق تلك الصولة القوية للآراء الصوفية العليا ، فعمل الشعرائى للصالح العام ، ولم يلق بالا إلى عواطف الحب والاحترام . فقام بهجومه الكبير القوى على كلمات التصوف المجنحة ، وعباراته الرجبية اللافق التى تحمل أكثر من معنى وتؤدى إلى أكثر من غاية .

يقول الشعرائى : وبالجمله فلأنحل قراءة كتب التوحيد الخاص وكتب العارفين إلا لعالم كامل أو من سلك طريق القوم ، وأما من لم يكن واحدا من هذين الرجلين فلا ينبغي له مطالعة شيء من ذلك خوفا عليه من إدخال الشبه التى لا يكاد الفطن أن يخرج منها فضلا عن غير الفطن .

ثم يقول :

« ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ومحبة الخوض فيها لا يعينها وقد وضع بعض العلماء من السلف كتاباً جمع فيه كثيراً من الكلمات التي ينطق بها العوام مما يؤدي إلى الكفر وحفر فيه من النظر في جملة من الكتب ، وقد حجب إلى أن أذكر لك طرقاً من ذلك لتجنب النطق به والنظر فيه ، فأقول وبالله التوفيق :

« وما يقع فيه كثير من الناس قولهم — يا من يرانا ولا يراه — وقولهم (يا ساكن هذه القبة الخضراء) وقولهم — سبحان من كان العلا مكانه — ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به لما يورث من الإيهام عند العوام ، وأن الله تعالى مكاناً خاصاً ، وإن قال هذا القائل أردت بقولي « ولا يراه » عدم رؤيتنا له في الدنيا ، قلنا له قد أطلقت القول ، والإطلاق في محل التفصيل خطأ . وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة ، سواء كان في حق الله تعالى أو في حق أنبيائه ، أو في حق دينه ، وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري يقول « ما أطلق الشرع في حقه تعالى أو في حق أنبيائه أطلقناه . وما منع منعناه وما لم يرد فيه إذن ولا منع نظرنا فيه . فإن أوهم ما يمتنع في حقه تعالى منعناه وإن لم يوهم شيئاً من ذلك رددناه إلى البراءة الأصلية ، ولم نحكم فيه بمنع أو إباحة فقد اتفق الإمامان على منع كل إطلاق يوهم محظوراً في حق الله تعالى ، وتبعهما العلماء على ذلك قاطبة . وكذلك منع من يقول . . . بادليل الحائرين ، يادليل من ليس له دليل — ونحو ذلك وكله لم يرد به شيء . وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث ينزل ربنا إلى سماء الدنيا . وقد بلغ بأحد الضالين أن يقول وكان على المنبر فنزل درجاً منه وقال للناس « ينزل ربكم عن كرسيه إلى سماء الدنيا كنزولي عن منبري هذا » وهذا جهل ليس فوقه جهل .

وبما يمنع شرعاً إطلاق بعضهم على الله تعالى - الخار - والساق - وراهب -
الدير - وصاحب الدير - وليلى ، ولبنى وسعدى ، وإسماء - ودعد - وهند ،
والكنز الأكبر ، ونحو ذلك ، وكذلك لا يجوز إجماعاً إرادته ذاته تعالى
بقول بعضهم .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
وقول بعضهم :

تمازجت الحقائق بالمعاني فصرنا واحداً روحاً ومعنى
فكل هذا وأمثاله لا يجوز عند أهل السنة والجماعة وقد سألت سيدى
عليها الخواصر عن التفزلات التى فى كلام القوم ، هل مرادهم بها الله تعالى .
فقال . لا . إنما مرادهم بها الخلق . ولكن يفهم الغام منها فى حق الحق
ما يثبته عند سماعها إلى الحضور مع الحق .

قال : لأن أولياء الله تعالى أعرف الخلق بالله تعالى بعد الرسل والأنبياء
عليهم الصلاة والسلام ويجلون الحق تعالى عن أن يعملوه محلاً لتفزيلاتهم .
فلذلك ضربوا الأمثال بالمحبين والمحبوبين . من قيس ولبنى ونحو ذلك .

وكذلك مما ينبغى اجتنابه قول بعضهم — مافى الوجود إلا الله —
وقولهم — إن الله فى قلوب العارفين — وإنما الصواب أن يقال : مافى
الوجود فى الأزل إلا الله : ومعرفة الله فى قلوب العارفين . وإليه الإشارة
بحديث (وسعى قلب عبدى المؤمن) أى وسع معرفتى من غير إحاطة به
وكذلك مما ينبغى اجتنابه قولهم — هذا زمان سوء — لأن الزمان هو
الدهر والدهر هو الله ، وكذلك قول بعض الخطباء سبحان من لم يزل
معبوداً لأنه عبد عند من لم يعلم كونه معبوداً بالقوة ، أى أهلاً لأن يعبد
لأنه يومهم قدم العالم ، وذلك كفر .

ومما يجب اجتنابه قولهم — يا قديم الزمان — لأن الرب لا يتقيد

بالزمان . فهو كلام باطل . وكذلك قول بعضهم — كل ما يفعله الله خير — لا يهاجمه نفي وجود الشر في العالم ، وإن كل ما يكبه البعد من المعاصي خير وكذلك قول فلان ، يطلع على الغيب — لأنه يوهم باطلاً — وإما الأدب أن يقال . فلان له فراسة صادقة . أو كشف أو اطلاع فقط . لئلا يزاحم الرسل في مقام العلم والقطع . فإنه ليس للأولياء إلا الظن الصادق فقط ، الذي هو في اصطلاحهم عبارة عن الإعتقاد الصحيح الجازم المطابق للواقع فقط . وهذا الظن هو الذي يسمونه إلهاما وفتحاً وكشفاً

وكذلك مما يحتجب قوله . قول بعضهم — باعك الله — وأقالك الله . إذا اشتغل في البيع أو الإقالة . لأنه يوهم مذهب أهل الاتحاد . وذلك كفر قال الامام العلامة عمر بن محمد الأشيلي في كتابه المسمى (لحن العوام) وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء للقرطبي ومن كتاب النفخ والنسوية له . وغير ذلك من كتب القوم . فإنها إما مدسوسة عليه أو وضعها في أوائل أمره . ثم رجع عنها كما ذكر في كتابه — المنفذ من الضلال . —

وكذلك يحذر من مواضع في كتاب (القوت) لأبي طالب المكي نحو قوله — الله تعالى قوت العالم — ومن مواضع في تفسير (مكي) ومن مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي . . .
ويعدد الشعرا في كتب كثيرة ثم يقول .

• وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه ، لدلو مراقبها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ ، لاسيما الفصوص . والفتوحات المكية . فقد أخبرني الشيخ أبو طاهر عن شيخه عن الشيخ بدر الدين بن جماعة . أنه كان يقول . جميع ما في كتب الشيخ

محبي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء مدسوس عليه . وكذلك كان يقول . الشيخ مجد الدين صاحب القاموس .^(١)

ويوالى الشعرانى حملته الكبرى فيقول :

« وليحذر أيضاً من مطالعة كتب عبد الحق بن سبعين عما يوم الخلول والاتحاد والتشبيه وأقوال الملحدين . ومنع بعضهم من سماع كلام سيدى عمر بن الفارض فى التائية . والجنهور على جواز ذلك مع التأويل . »

ويختتم الشعرانى تلك الدراسة المؤتمنة الصادقة التى يهدف بها إلى حماية العوام وأشياء العوام من صولة التصوف والمتصوفة بقوله .

« فهذه عدة نصائح وتحذيرات قد سقتها إليك . فزنها بميزان الشرع . وعليك بمطالعة كتب الشريعة من حديث وتفسير وفقه والاقتداء بأئمة الدين من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ومقلديهم من الفقهاء والمتكلمين . ولمايك والاجتماع هؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريقة القوم . »

والشعرانى وهو بهاجم النفلنف فى النصف . ويرفع النار عن الدخيل والمدسوس على المنصوفة ، لا ينسى أبداً رسالته كصوفى ولا ينسى أن يكشف النار عن حقائق العلم الصوفى الصادق الذى صدر عن وجد وحب أو عن ذوق رفيع واصطلاح صوفى يدق على من لم يتذوق الحان القوم ومقاصدهم .

ولهذا فهو يعقب على حملته بدفاع صار عن أقطاب التصوف وعن كلمات لهم أو اصطلاحات أولها الناس فخرجوا بالتأويل عن مقاصدهم وأهدافهم .

ومن هذا القليل ، كلة حجة الإسلام الغزالى المشهورة - ليس فى الإمكان أبدع مماكان - التى اتخذها ابن تيمية وسيلة لتجريح الغزالى

والتهمك به ، بدعوى أن في هذا القول ما يشبه الحجر على قدرة الله في الابداع المستمر .

يقول الشعراني : كلمة الغزالي كلمة مؤمنة صادقة وإن جهلها خصومه لأن جميع الممكنات أبرزها الله على صورة ما كانت في عله تعالى القديم ، وعله القديم لا يقبل الزيادة ، وفي القرآن الكريم : أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ودافع أيضاً عن شيخه الأكبر محي الدين بن عربي وأوضح ما يريد من قوله في الفتوحات وغيرها — حدثني قلبي عن ربي . أو حدثني ربي عن قلبي . أو حدثني ربي عن نفسه تعالى : بارتفاع الوسائط .

• يقول الشعراني : ليس مراده ، أن الله تعالى كله كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما مراده أن الله تعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف بعض أحوال . فهو من باب قوله صلى الله عليه وسلم : إن يكن في أمتي محدثون فعمرو .

ثم يقول الشعراني ، وبما نقل عن القوم . قولهم : اللوح المحفوظ هو قلب العارف ، ليس مرادهم نفي اللوح المحفوظ وإنما مرادهم أن قلب العارف إذا انجلى ارتسم فيه كل ما كتب في اللوح المحفوظ نظير المرأة إذا قابلها لوح مكتوب .

وقولهم أيضاً ، دخلنا حضرة الله وخرجنا عن حضرة الله . ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكاناً خاصاً معيناً فإن ذلك ربما يفهم منه التحيز للحق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدي الله عز وجل . فإدام يشهد أنه بين يدي ربه عز وجل فهو في حضرته . فإذا حجب خرج عن حضرته تعالى . وللشعراني في هذا الباب إسهاب وتفصيل لم يسبق إليه .

وبذلك أنصف الشعراني التصوف الصادق بدفاعه الصادق كما أنصف
الحقيقة هجومه على كل من شطح أو تقلب فأوهم كله ما يחדش الايمان
أو يتنافى مع حقائق الاحسان .

وكان الشعراني في المواقفين كمهده أبدا على الجادة الواضحة والصراط
المستقيم . والطريقة الوسطى .

بين الشعراى وادعاء التصوف

فساد التصوف فى عصره

خضعت مصر لحكم الممالك حقبة طويلة كانت فيها على غير فطرتها ونهجها التاريخى فصر منذ فجر التاريخ ، أمة مفكرة ، مؤمنة عابدة ، فى أول أمة اعتدت إلى التوحيد وعبدت الله جل جلاله على نوره . وهى أول أمة شيدت للعبادة وللروحانية أضخم وأجل ما عرفت الإنسانية من معابد وهياكل مقدسة .

وإلى مصر لجأت وعاشت وازدهرت اليهودية والمسيحية والإسلامية وفى مصر عاش موسى وعيسى ويوسف ، وغيرهم من الأنبياء الذين قص الله سبحانه قصصهم فى القرآن ، وغيرهم من لم يقصص .

فالتاريخ الروحى لمصر . تاريخ حافل . بل هو التاريخ الغالب ، بل هو سرها التاريخى الذى أمدّها دائماً بالحياة والقوة ، وإذا فقدت مصر هذا السر يوما ، فقد فقدت روحها ، أو بالتالى فقدت حياتها العزيزة الكريمة . ثم هبط أرض مصر العنصر القوقازى ، هبط أفراداه أذلاء أرقاء ، وما هى إلا لدورة من دورات التاريخ حتى أصبح الممالك سادة مصر وحكامها وأصبح عرش مصر نهبا لكل واثب بسيف وصائل برمح وضارب بسهم .

وأسس الممالك فى مصر قوة حرية من أعظم القوى التى عرفها العالم الإسلامى ، بل من أعظم القوى فى تاريخ العسكرية العالمية

ولكن المشاغل العلية ، والمصاييح الإيمانية التى كانت تضىء لمصر ، وتضىء من مصر للعالم أخذ نورها يخفى فى عهد الممالك ، بل أخذ نورها يطفى ويتبدد ، وتخنقه الظلمات ، فما كان الممالك يوما من الأيام رجال فكر

أو علم ، وما كان لهم طاقة على العلم والفكر ، وما كانت تصوراتهم عن الدين إلا تصورات جاهلة حقاء ، انحصرت في دائرة واحدة هي دائرة التعصب الحاد اللاحق للإسلام دون فهم له ، أو استنارة بآدابه ونهجه .

وامتد حكم الممالك وطالت أيامه ، فأخذت القبضة القولاذية تضعف وأخذ التناحر على الحكم بينهم يشتد ويعنف . وغدت مصر مرتعا لأقوى أنواع التهب والسلب وأشد أنواع الظلم والاستبداد فلم يعد هناك حصانة لمال أو عرض أو حياة ، بل كل شيء للأقوى ولا شيء أبدا للضعيف العاجز .

وانعزلت مصر عن العالم ، وأقيم بينها وبين الحضارات العالمية سدود وقبود ، وبعدت مصر عن ينابيع الهدى الإيماني الإسلامي . فقامت دولة الخرافة والأسطورة ، وساد العصر الذي يسمى بحق عصر الدراويش . أو دولة الأولياء الكاذبين ، وهو العصر الذي لا تزال بقاياه تشاهد في بعض مواكب رجال الطرق الصوفية التي تفرع ريف مصر بطبولها الساذجة ، واعلامها الممزقة . وأهدافها الأسطورية البدائية

العصر الذي لا تزال بقاياه تشاهد في تلك المهازل التي تحف بأضرحة الأولياء في القاهرة وعواصم المدن ، المهازل التي يسمى أصحابها بالدراويش والمجازيب وضاربى الرمل وكاشفى الغيب ، وصانعى المعجزات ١١٢١

ومن عجب أن الدين الإسلامي ، وهو الذى ابتعث البدو الاميين من صحاريهم ، ليكونوا هداة عالميين في ساحات العلم والحضارة وما إلى العلم والحضارة ، وقوادا فاتحين في ميادين الحرب والجهاد وما إلى الحرب والجهاد ، قد تحول في مصر في أواخر عهد الممالك ، أو حوله أصحابه إلى مجموعة ضخمة هائلة من البدع والخرافات والأساطير الذليلة ، إلى مجموعة ضخمة هائلة من القموض والاهام والتمطل من الاخلاق والتفرد على الآداب والشعوذة السمجة الوقحة .

وتستر الدجالون والمشعورون والمتحللون وراء التصوف يتخذونه شعاراً ودثاراً وحماية لهم ، وباسم هذا التصوف الزائف ارتكبت أشنع الجرائم ضد الدين ، ونهبت الأموال ، وهتكت الأعراض ، وهدمت الفرائض وأهدرت الآداب .

وبعد أن كانت علة التصوف في عصور الارتفاع العلمي ، هي السباحات الفلسفية التي دست عليه وتسربت إلى مجراه من الفلسفات العالمية المحيطة به ، أصبحت علة التصوف هي تلك العامة المتحلة من الاخلاق ، المتهاككة على الشهوات المهذرة لكل المقدسات .

حتى رأينا من يخطب على المنابر عارياً ، ويخطب في الناس قائلاً : السلطان وديماط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون والحد لله رب العالمين ، فيحصل للناس بسط عظيم فيما يرويه رجال التاريخ ^(١) .

ومن يقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم مترنماً على طريقة قراءة القرآن وما أتم في تصديق هود بصادقين ولقد أرسل الله لنا بالموثفات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين ^(٢) .

ثم يعقب على ذلك قائلاً : اللهم اجعل نواب ماقرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان .

ويعقب الشعراني على ترجمته قائلاً : ولم أسمع أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله . بل يعدون رؤيته عيداً عندهم

وجاء الشعراني كما يحى . المطر للأرض المجذبة التي يريد الله أن يبعثها ويحييها لينفع بها عباده .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ وعلى مبارك ج ٦ ص ٢٣

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤

جاء الشعراى فى اللحظة الحاسمة التى يهبها الله جل جلاله لخلقها لتكون
فاصلا بين عهدين، وفصلا بين فكرتين، وبداية لصفحة جديدة وحياة جديدة .
جاء الشعراى فرأى أمة تسبح فى الظلمات ، ورأى دولة الدراويش ،
دولة الإقطاع الروجى تترج فى الشهوات . وشاهد مدعى الولاية الكاذبين
ومنزعى الطرق الصوفية المضللين . وليس فيهم أو بينهم مصباح واحد يرسل
شعاعا من نوره ليهدى الحيارى إلى الله .

فأوقف قلبه ولسانه ، وعقله وحياته . على الجهاد الأكبر لتطهير المحراب
الصوفى من الدجل والشعوذة وتحويل التيار الأعظم المندفع إلى الهاوية
إلى الجادة المستقيمة الواضحة .

ولم تكن الرسالة هينة . ولم تكن الغاية مأمونة السبل . فالطريق شاق
مهلك تقوم فيه الأشواك وتممره الأهوال ، وتغمره الزلازل والمتاعب .
والشعراى لم يكن فى مناعة من حياته . بل كانت تنوشه أفلام الفقهاء
وألستهم فقد جاء مزلا لمكانتهم محطما لصولتهم . وتخدشه أنياب رجال
الكلام وأظفارهم ، فهو معهم فى معركة لم يبدأ أوارها بعد . ويرمقه رجال
الحكم والولاية بعين الحذر والغضب ، فهو دائما ينازعهم الأمر . متصرا
للضعفاء ومن فى حكم الضعفاء من أصحاب الحاجات وما أكثرهم .

والمصيحات بأخذه من كل جانب ولحقرفى التصوف دولة ولزعمائهم
صولة ومكانة شعبية لا تسمى ولا تضارع .

ولكن الشعراى رغم سياسته التى سنعرض لها بعد ، ورغم لبونة قلمه
فى جداله مع الفقهاء وحواره مع رجال التوحيد والكلام لم تزلزله الأهوال
التي تخف به . بل تقدم إلى المعركة الكبرى عنيفا قاسيا على غير عادته .
لأنه يعلم علم اليقين . أنه ينازل فئة هى أخطر على الإسلام ومقدساته

من كل خصم وعدو . تقدم ليحطم الهيكل المذنب على عياده . ولقبوض الصرح الظالم على اللاتذنبين به والمتنجسين إليه .

ثم لينى على الانقراض صرح الايمان الصادق وهيكل التصوف الذى هو قمة الايمان ، وخلاصة الدين ، ونوره الوضاء المبين .

وفى سبيل هذه الغاية المقدسة ألف الشمرانى كتابه العظيم ، المنن ، لا ليتحدث عن نفسه ولا لياهى بأخلاقه وأعماله ومقاماته ، كما ظن بعض المستشرقين والسائرين تحت ألويتهم من كتابنا المحدثين . ولكن ليضع أمام أدياء التصوف ، وليضع أمام الامة الاسلامية التى خدعت فى هؤلاء الأدياء المثل العليا للأخلاق المحمدية ، والمثل العليا للاداب الربانية ، فقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه خلقه القرآن كما تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها وكل متصوف صادق هو على سنن نبيه العظيم وعلى هدى رسوله الكريم — لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة — .

والمنن من الناحية الموضوعية أعظم كتاب أخلاقى فى تاريخ العربية . بل لعله أعظم كتاب للثالثات الإيمانية الصوفية فى تاريخ التعبد الإسلامى . فلقد رسم الشمرانى فى كتابه القذ الخطوط العليا العريضة للاداب الاسلامية من وجدانية ونفسية وعملية . كما رسم الخطوط العريضة الواضحة لما يقابلها من سيئات منحدره هابطة إلى أسفل . وما يحف بها من شهوات وما يلود بها من أحقاد النفس ووسائس القلب وما يعترك فى الطبع الانسانى من غل وحسد وشهوات .

فالمنن إذن من الناحية الفنية، فيصلا ميئاً بين التصوف الصادق الذى يرتكز على الخلق المحمدى . وبين أدياء التصوف المهابطين بأخلاقهم وأعمالهم إلى ما ينكره الاسلام ويرأ منه الايمان ولا يرضى عنه الخلق الكريم .

ولا يضير الشعراني أنه عمد في بعض فصول هذا الكتاب إلى ما يشبه الأسلوب العامي . أو الوعظ القصصي ، فلقد هدف الشعراني منذ خط السطر الاول في هذا الكتاب إلى مخاطبة الجماهير العامة في عصره وهي الجماهير التي ضلها أدعياء التصوف . وعبث بها الاقطاعيون الروحانيون .

والجماهير العامة في كل الأمم وفي عصر الشعراني خاصة لا يصلح لها سوى هذا الأسلوب السهل الرقيق . وسوى هذا اللون من الارشاد والتوجيه المبين الواضح القريب من القلوب والارواح .

بل لعل هذا اللون من البيان الذي يشبه الدردشة الكلامية هو الأسلوب الحكيم الذي لا أسلوب سواه يصلح للقاية التي هدف إليها الشعراني ، ورمم خطوطها ، وحدد أهدافها .

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب .

« فلهذه جملة من النعم والاخلاق التي تفضل الحق تعالى بها على أوائل دخولي في حجة طريق القوم رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، كان الباعث على تأليفها ورقها في هذه الطروس أموراً : أحدها ليقندى في اخواني فيها ، وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لي يوماً جماعة منهم هذه الاخلاق التي تأمرنا بها لا نجد أحداً تخلق بها من أهل عصرنا حتى تقندى به فيها . فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلق بها فاتبعوني عليها وما بقى لكم حجة في ترك التخلق بها فلو لا ذلك لربما كان الكتابان لها أولى . »

علم الشعراني أن الاخلاق العالية لا بد أن يكون لها رمز تتمثل فيه ، لتشاهدها الاعين حية متحركة قائمة بين الناس ، وعلم أن أصحابه وأهل عصره لا يمكن أن يتحملوا تلك الثورة الايمانية التي يشر بها ويعمل أعلامها ، فرمز

لهذه الأخلاق بنفسه . هذه الأخلاق التي قال معاصروه عنها ، إنهم لم يروا أحداً متخلفاً بها .

وليس معنى هذا أن الشرعاني كان بعيداً عن هذه الأخلاق أو كان مدعياً في نسبتها إلى نفسه ، ولكننا قصدنا أنه صاغها على نفسه ليكون وقعها في معاصريه أكل وأتم .

وفي سبيل هذه الغاية العليا أيضاً ألف الشرعاني كتابه الفريد البديع (لواقع الأنوار القدسية في بيان اليهود المحمدية) .

واليهود المحمدية التي عناها الشرعاني هي خلاصة الدين الرباني أو صفوة الأخلاق المحمدية ، وكل أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه صفوة .

ولقد وضع الشرعاني هذا الكتاب ، ليظهر الفرق الشاسع بين أخلاق رسول الله ﷺ وهو المثل الأعلى لكل مسلم وهو الإمام الأكبر لكل صوفي ، وبين أخلاق الشيوخ المنصدرين لقيادة مواكب التصوف الزائف حتى يحصص الحق ، وينبلج الصبح المنير ، ويقين كل من ينشد الهدى ، هل هؤلاء الشيوخ المنصرون لقيادة التصوف ، أدعياء جهلة أم مؤمنون برة . . . ؟

يقول الشرعاني في مقدمة هذا الكتاب :

« هذا كتاب نفيس لم يسبق أحد إلى وضع مثاله ، ولا أظن أحداً نسج على منواله ، ضمته جميع اليهود التي بلغتني عن رسول الله من فعل المأمورات وترك المنهيات .

وكان الباعث لي على تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان على ما نقص من دنياهم ولم أر أحد منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا ظيلاً فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم فوضعت لهم هذا الكتاب

المنه لكل انسان على ما نقص من أمور دينه ، فمن أراد من الاخوان أن يعرف مذهب من دينه فلي نظر في أى عهد ذكرته له في هذا الكتاب ويتأمل نفسه ، يعرف يقينا ما أدخل به من أحكام دينه فيأخذ في التدارك أو الندم والاستغفار .

ثم اعلم يا أخى أن طريق العمل بالكتاب والسنة قد توعرت في هذا الزمان وعز سالكها لأمور عرضت في الطريق يعاول شرحها حتى صار الانسان يرى الاخلاق المحمدية فلا يقدر على الوصول إلى التخلق بشئ . منها فلذلك كنت أقول في غالب عهود الكتاب ، وهذا العهد يحتاج من يعمل به إلى شيخ يسلك به الطريق ويزيل من طريقه الموانع .

وفي سبيل الغاية التي رسمها الشعراني وهي الثورة على أديباء التصوف ورسم المثل العليا للتصوف الصادق القائم على الكتاب والسنة ألف كتابه الصوفي الرائع - الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية - خصصه لتوضيح المناهج الصوفية النقية ، والصلات التي تربط الشيخ بالمريد والمريد بالشيخ ، والآداب الواجبة على كل منهما ، كما شرح فيه معاني الإلهام الصوفي ودقائق ورقائق الطريق الرباني وما فيه من أنوار وما تتطلبه تلك الأنوار من آداب وأخلاق . لأن النور ثمرة الخلق . والإلهام ثمرة العبادة الصادقة والطاعة المؤمنة .

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب .

« وقد سألي بعض الفقراء - الصوفية - من الاخوان نفع الله بهم أن أملئ جملة من آداب العبودية ، آداب الفقراء عموماً وخصوصاً ، وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لأن الشيطان لهم بالمرصاد ولا ينجو منه إلا القليل من عباد الله . »

ولم نذكر هذه الكتب الثلاثة على سبيل الحصر وإنما ذكرناها على سبيل الرمز والمثال ، فالحقيقة أن كل كتب الشعرائى التى أربت على المائة لم تخل من هذا التوجيه ، ولم تخل من هذا اللون من التوضيح والإرشاد .

هذا هو جانب البناء فى صراع الشعرائى مع أدعياء التصوف أما الجانب الآخر فهو الصراع العنيف المر ، والمعركة القاسية التى خاض الشعرائى غمارها فى وجه العاصفة . وبألمها من عاصفة .

فقد روت لنا كتب المناقب أن مصر خلت فى عصر الشعرائى بطوائف من الدراويش بخطمهم العدد واكتظت الشوارع والطرق بمراكبهم والبيوت بولائمهم والزوايا والمساجد باجتماعاتهم ، وانتشر الشيوخ والاتباع فى الريف والحضر وتطفلوا فى المدن والقرى ، وامتد سلطانهم إلى كافة طوائف الشعب وأضحى المتصوفة فوق القانون وفوق العرف وفوق الدين . واقتسموا بينهم مناطق مصر . فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض يتصرف فى أهلها ويستغل مواردها .

وكان على الشعب أن يكفلهم ويقوم بحاجتهم . وينظم لهم الموالد والولائم . وقد كان من أظهر مميزات التصوف فى هذا العصر تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة إجتماعية تتمثل فى حياة أتباعه فى رحاب الزوايا والنكاياء حيث يعيشون مع زوجاتهم من فيض الأوقاف الضخمة التى تحبس عليهم ، والأرزاق التى تجرى من أجلهم وكانت هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفاً ، وكان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار فى الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عبيدهم وسدوا طريقه ، وانماهوا على يديه وقدميه تقبيلاً ولحماً تقريباً إلى الله وزلفى . . .^(١)

ويروى لنا الشعراني من أخلاق هذه الطائفة القوية السائدة عجباً أى عجب . لا تكاد تصوره في عهدنا مع أنه كان اللون الغالب السائد في عصر الشعراني في دولة المجاذيب والدرأويش .

كان الجهل الفاضح . والتحليل الشائن من الدين ، بل التمرد على الدين هو طابع الشيخ والمريد في هذا العصر .

يروى لنا الشعراني في معرض الحديث عن جهالة مشايخ الإسماعيلية والبرهانية في عصره أنه سأل واحد منهم عن قواعد الإيمان فقال لا أدري . فسأله عن فرائض الوضوء . فقال لا أدري ؟ فسأله عن شروط الصلاة فقال لا أدري ؟

ويقول الشعراني معلقاً على هذا ، مع أنه شيخ كبير في زاوية يأخذ العهد وينتصر الوعظ^(١) .

ويحدثنا الشعراني عن شيخ كبير من هؤلاء الشيوخ جاء لزيارة الشعراني فسأله الشعراني عن بعض مسائل في الدين . فصرح مفاجراً بأنه لم يقرأ في العلم شيئاً . لأنه يحقر العلم . ولا يعرف عن شروط الصلاة والوضوء كثيراً ولا قليلاً . لأنه فوق العبادات^(٢) .

ويروى لنا المناوي في طبقاته الكبرى . أن زعامة التصوف قد آلت بعد الفتح العثماني إلى رجلين . يمثلان المعسكرين ، معسكر التصوف العلي الرباني ، ومعسكر الادعاء الجهلة هما الشعراني ، ومحمد كريم الخلوئي . ثم يقص علينا المناوي قصة اللقاء بين الرجلين الزعيمين :

(١) قواعد الصوفية ص ١٢٦

(٢) نبيه المقترب ص ٤

قال المناوى .

سأل الشعراني الخلق عن مسألة في الوضوء فأعلن هذا جهله بها رغم زعامته ورعما أصاب من شهرة بين الناس والأمراء ، فقال له الشعراني إنك لا تصير صوفياً بغير علم . فقال الخلق على . فشرع الشعراني في تعليمه ثم زاره مرة ثانية ليواصل تعليمه فأغلق هذا باب زاويته في وجهه فعاد مرة ثالثة عسى أن يتمكن من تعليمه فأساء الخلق استقباله ، وأغلق الباب في وجهه ، وقال لمريديه ساخراً — إن الشيخ الشعراني طلب أن يجعلني فقيها وأنا صوفي — قال الشعراني ففهمت من كلامه أنه اعتقد إلى دعوته إلى أمر فيه نقص . وقد أخذ الخلق ومريده يهزأون بالشعراني ويقولون : إنه يريد أن يجعلنا فقيهاً مثله ^(١) .

ويصف لنا الأستاذ — أدوار لين — الذي زار مصر بعد انقضاء العصر العثماني بنيف وعشرين عاماً في كتابه القيم عن مصر خلال هذا العهد ، زعماء النصارى في هذا العصر وصفاً عجيباً يقول .

« وممظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخاييل أو دجالون يسير بعضهم في الشوارع عارياً كامل العري . فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير . حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم . بل يأذن لهؤلاء الجبناء أحياناً بأن يكونوا معهم على قارعة الطريق أحراراً كامل الحرية ولا يعتبر هذا في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة . بل هم يؤلون ما يشاهدون وما أعجب تأويلهم ^(٢) » .

هذا موقف الشيوخ والزعماء . أما موقف المريدين والاتباع فيكنى

(١) طبقات المناوى الكبرى ص ٥١٩

(٢) كتاب الأستاذ لين ص ٢٣٤

أن نقول: أن أحدهم احتاج إلى المال في تزويج ابنة له فضى إلى أحد التجار ملتصاً قرصاً في نظير رهينة من شعر أخيه من رأس شيخه . فقال له التاجر ساخراً منه كماً . لو أعطيتني أردباً من شعر شيخك ما أخذته بدائق، ولم يحزن المرید لحرمانه من المال بل كان حزنه الأكبر لسخوية الناس من شعر شيخه المقدس الذي لا يقدر بمال ٢١١

رأى الشعراني ذلك البلاء المحيط بالامة الإسلامية في مصر فسدد قلبه وأرسل لسانه في ثورة ملتهبة . وحلة صادقة . تبحث أصول هذا البلاء وتحطم صرح هذا البهتان .

وأخذ الشعراني ينقض دعاوى تلك الطوائف متمقبا لخطاها مترصداً لحركاتها . مدللاً بالآيات الكريمة . والاحاديث الشريفة على مروقهم من الدين وبراتهم من الإيمان .

وأفتى الشعراني فيما أفتى بأن الأحمدية والرافعية والبسطامية والادمية والمسلمية والدسوقية في عهده . خارجون على شريعة الله لأن أفعالهم يكذبها طريق شيوخهم السابقين . كما يكذبها الكتاب والسنة وهما : أصل الإسلام . وبرهانه المبين .

وتمتقب الشعراني شيوخ عهده ، شيخاً فشيخاً مظهر اجهلهم بل كفرهم وسوء أدبهم وأنهم أضل من الانعام . وأن طريق التصوف وهو الطهارة الكاملة . والزهد الشامل قد أصبح على أيديهم طريقاً إلى الشحاذة والتسول ، وهان حتى في أعين الطغمان كما يقول .

ثم وضع الشعراني رسالته - ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى - فكانت السهم الأكبر ، هاجم بهامدعى الولاية زوراً وبهتاناً وبحترفي التصوف

كذباً ونفاقاً . قائلاً : إنهم يقتنعون بلبس الزى . وإن سألت شياً منهم عن قواعد الإيمان . قال : لا أدري . أو فرائض الوضوء . قال : لا أدري ؟ ولا يعترف الإسلام بإسلام من يحول قواعد دينه ، فضلاً عن أن يكون شيخاً أو مرشداً .

وألف الشمراني كتبه الكبرى . تنبيه المفتريين ، والمثني الكبرى . والعهود المحمدية . والأنوار القدسية . وقواعد الصوفية . ليجلو الأخلاق الصوفية المثالية التي عرفها التصوف الصادق ، وليظهر الفرق البعيد بينه وبين الوالكين المتصوفين المرتزقة الزائفين . الذين آمنوا أينما ثقفوا . وباؤا بغضب من الله ، وبراءة من الرسول .

موقف الشعراني

من المتصوفة العاطلين

وقد جر هذا اللون من التصوف الكاذب على الحياة الاجتماعية في مصر تكبات نالت من اقتصادياتها وعزائم بنيتها ، وأثرت في مكاتها الدولية . فلقد كانت البطالة والتعطل من المبادئ العامة المحترمة المعترف بها في بيئات متصوفة هذا العصر .

فكل من تزيا بزى المتصوفة ترك العمل وانقطع إلى الزاوية أو النكية الخاصة بشيخه ، ورأى أن من حقه على الناس أن يطعموه ، وأن يقوموا بمعاشه بل ومعاش أسرته أيضاً .

وقبلت الجماهير المصرية من هؤلاء الدراويش هذا الوضع ، بل اعتبروا تقديم الطعام والملبس وما إلى الطعام والملبس إليهم واجبا يحتمه الدين عليهم . وللکسب والعمل في الاسلام مكانة لا يضارعا إلا الجهاد في سبيل الله ، مر على النبي صلوات الله وسلامه عليه رجل ، فرأى أصحاب الرسول من جلده وانشاطه في الكسب والارتزاق ، ما جعلهم يتحدثون فيه . قالوا : يا رسول الله . لو كان هذا في سبيل الله : فقال . صلوات الله عليه إن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله .

وعاد بعض صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سفر فأخذوا يتحدثون الرسول عن رجل كان معهم كثير العبادة ، كثير الصلاة ، كثير الصوم متفرغا أبدا لتقواه . فقال لهم النبي ، من كان يقوم به في معيشته قالوا أخوه . قال أخوه أعبد منه .

ذلك هو منطق الإسلام ولكن ادعاء التصوف أبدلوه ونقضوه كما أبدلوا ونقضوا كل عرى الإسلام .

وأدرك الشعراى خطورة هذا الأمر على الفكرة الإسلامية وعلى الناحية الاقتصادية فى الأمة الإسلامية . فخصص جانباً كبيراً من حمله على أدعاء التصوف ، لتلك النقطة الخطيرة .

دعا الشعراى إلى الجمع بين العبادة والعمل باعتبارهما دعامة الحياة وساق الأدلة التاريخية على حرص كبار الصالحين من أهل التصوف على تجنب العيش على صدقات المحسنين .

وفضل الشعراى الصناعات على العباد . لأن هؤلاء يساهمون فى نفع الناس بينما العبادة يقتصر نفعها على صاحبها . وكان يقول ما أجل أن يجعل الخياط مثلاً أبرته سبحة . وأن يجعل النجار - منشاره سبحة ، ذلك هو التسبيح النافع المقبول .

بل لقد آثر الشعراى فى دعوته حياة البدن على حياة الروح لأن هذه قد تفرعت عن حياة الجسم وهى تتأثر بما يعتريه من وجوه السر والسر . حتى ليفضى الضحك إلى تشنت الفكر وبلبلة الخاطر - ولذلك كان أبو حنيفة يقول - لا تستشر من ليس فى يته دقيق .

ويصرح الشعراى بأن ترك الكسب بالعمل المشروع والتمس الرزق عند المحسنين كدأب متسوقة عصره جهل بمقام التوكل الصحيح ^(١) .

ومن الجهالة كما يقول الشعراى ذم الدنيا أطلاقاً . وآفة الدنيا النساء والمال والمجاه والولد . ولكن الكامل لا يهرب من هذه الآفات بل يستوعب خبئها جميعاً . لأن دنيا العارف فى يده وليست فى قلبه .

ومن هنا كان النكاح كما يقول الشعرائى عبادة . بل النكاح عنده أعظم النوافل التى تدنى الانسان من ربه وتبته لتلقى العلم اللدى .
والزهد عند الكل كما يقول الشعرائى . لا يكون عن خلو البدن من متاع الدنيا وإنما يكون بخلو القلب مع امتلاء البدن . وكال المقام فى زهد القلب لا يتحقق بغير الزهد فيما يملك الانسان التصرف فيه من غير مانع ، أما الزهد مع خلو البدن بما كان مصدره الاملاق ولهذا قيل ، شرط الداعى الى الله ألا يكون كامل التجرد من دنياه

وهذا بالاضافة إلى أن مثل هذا الاملاق يحوج صاحبه إلى سؤال الناس بالحال أو بالمقال . وبهذا يهون فى نفوسهم أمره . ويضد عندهم تأثير تعاليمه . وعلى الضد من ذلك إن كان صاحب مال يفيض عن حياته فينفق منه على مريديه وغيرهم من المحتاجين ^(١)

وتلك رحابة أفق من الشعرائى فى فهم الدنيا وتصور رسالة العابد الزاهد فيها . قلنا يجد لها مثيلاً فى تفكير رجال الدين .

ذلك موقف الشعرائى من ادعاء التصوف ، وليس معنى هذا أن هؤلاء الأدعياء ، وهم قوة ضخمة ، فعالة فى المجتمع المصرى ، قد استكانوا لحلة الشعرائى . وألقوا السلاح أمامها بغير حرب ولا قتال .

لقد هاجموا الشعرائى بكل سلاح . واعتدوا عليه ، وتربصوا به الدوائر وملؤا الدنيا هتافاً وصياحاً بالتشهير به ، والحلقة عليه ، بل أرسدوا له من يقتله غيلة وغدرا .

وقد أشار المناوى . والشبلى إلى التعاون الذى قام سرّاً بين هؤلاء المتصوفة وبين الفقهاء ضد الشعرائى فى مؤامرة الأزهر الكبرى التى اتهم فيها الشعرائى بالكفر كما سيأتى بيانه عند الحديث عن صراعة مع الفقهاء

ولقد تحطمت حملات أدعياء التصوف على الشعراني . لأنها صادفت لدى الشعراني قوة إيمانية لا تغالب ، وقوة عليّة لا تصاول ، وقوة نفسية لا تسور إليها الأحداث . حتى ليهتف الشعراني وانقا بنفسه ، اللهم أفضحنا ولا تسترنا حتى يتميز الخبيث من الطيب ، وهي كلمة لا يجرؤ على قولها إلا رجل أي رجل .

رجل يعلم ماهو عمله . وما هي مكائنه ، وأنه عمل لا تلحق به الشوائب وأنها مكانة لا تدنو منها الشبهات .

بينما أدت حملة الشعراني إلى القضاء على نفوذ هؤلاء الشيوخ الجبهة الادعياء ، كما أنمرت حركة صوفية صالحة صادقة عالمه بمصر .

حركة تصفها كتب التاريخ والمنافب بأنها عادت بالتصوف إلى عصوره الأولى . إيماناً وزهداً . ومعرفة وعدلاً ونوراً يرشد المسلمين إلى أنبل مافي الحياة من أخلاقيات ومثاليات .

وحسب الشعراني هذه الرسالة وحدها . فيمثلها يخلد العلماء المجاهدون مع أنها كانت جزءاً من حياته . ولم تكن كل رسالته :

الشعراني

وقتها. الأزهر

الصراع بين الفقه والتصوف :

الفقه والتصوف ، صورتان من صور النشاط العلمي في التفكير الاسلامي ، ووجهان من أوجه التشريع والأخلاق في المجال الروحي للرسالة المحمدية ومع هذا فالخصومة بينهما تقليدية تاريخية ، منذ عرف الناس التصوف والفقه .

ولقد كان الفقيه في صدر الاسلام ، هو النموذج الكامل للرجل الكامل في الاسلام ، كان الفقيه هو العابد العالم الزاهد المجاهد ، المجاهر بكلمة الحق القائم على الجادة يرشد الناس بعله وعمله وبأخذهم بأيديهم إلى ما يرضى الله وإلى ما شرع الله ، وإلى ما فيه خير الأمة الاسلامية . والمجموعة البشرية كافة ، وبذلك كان الفقيه والصوفي شيئاً واحداً ، وكان التصوف والفقه اسمان لعلم مشترك .

كان الفقيه هكذا ، يوم كان الفقه هو روح الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية . يوم كان الفقه تشريعاً وخلقاً . وعلماً وعملاً ، يوم كان الفقه لا يعرف الحيل الشرعية . ولا التفريعات الافتراضية الشاذة ، ولا الأعيب الألفاظ التي تقتص الرخص وتستهدف الغلبة في ميادين الجدل والحوار . ثم أخذ الفقه الذي نعرفه اليوم يتكون شيئاً فشيئاً . بل أخذ يتعد شيئاً فشيئاً عن أخلاقيات ومثالياته وصفاته الأولى ، وأخذت ملامحه تتبدل وتغير وتتلون بألوان الثقافات التي تسربت إليه وتقمعت به ، وتدرت وراء تشريعاته .

فقد الفقه علماً أكثر منه عملاً . وأصبح كناً للعقول أكثر منه مادة وتوجيهاً للقلوب ، بل أصبح وسيلة للحياة وسليماً لمناصها وزخرفها .

وبذلك خلع الفقيه أردية العباد ليرتدى أزياء رجال القانون ، وترك محارب التقوى ليحتل مناصب الدنيا ، وأعرض عن الأخلاقيات والمثاليات ليمسح مع الساجدين وليتشب مع الوائبين إلى لمع الجمال ومتاع الحياة ، وما تزخر به الدنيا من مفاتن ومباهج .

ومن هنا انفصل الفقه عن التصوف ، أو انفصل المتصوفة عن الفقهاء واختلفا طريقاً ونهجاً ، وغاية وهدفاً .

يقول ابن خلدون في مقدمته متحدثاً عن نشأة التصوف وعن سمات أصحابه :

وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . طريقة الحق والهداية . وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، ولما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مغالطة الدنيا ، اختص المقبلون على الله باسم الصوفية .

اختص المتصوفة بشهادة الكاتب الكبير ابن خلدون . بالأخلاق الإسلامية التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم ، وبالاقبال على الله والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يتنافس فيه الناس ، بل فيما يتقاتل عليه القطيع العام من البشرية .

واختص المتصوفة أيضاً بأنهم ربطوا بين العلم والعمل ، فالفقيه عندما هو العالم العابد ، هو الذي ينبع لإيمانه من قلبه لا من عقله ، هو الذي (٩٢ - الشمراني)

يطابق عمله علمه ، لأن العقيدة هي العمل . ولأن التعمد شرط العلم الديني .

كما امتاز المنصوفة بإتباعهم عن الجدلّيات المنطقية ، والتفريعات الافتراضية التي تباعد بين المسلم وجوهر دينه ، والتي تشغل العقل الاسلامي عن واجبه الأول وهدفه الأسمى . واعتبروها مفقطة دخيلة على الاسلام بعيدة عن روحه الفطرية السليمة ، أولى منها ثم أولى الاشتغال بما يطهر القلب ويركي الجوارح ويلهم الروح طاعة الله والعمل على رضاه .

وعلى ضوء هذه العقيدة آمن المنصوفة بأن رجال الفقه المتأخرين أو أكثرهم انحرفوا عن مناهجه الاسلامية ، ولم يقوموا بحجابه التعبدية والأخلاقية ، فعدوا رجال قانون وتشريع . لا رجال عقيدة ودين .

عن عمران القصير قال : سألت الحسن البصري عن شيء . فقلت : إن الفقهاء يقولون كذا وكذا ، فقال : وهل رأيت فقيهاً بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه عز وجل .

وكان أبو طالب المكي يقول :

علماء الدنيا — أي الفقهاء — قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل ؛ وكان يشبههم بالثعور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى ^(١) .

وكان الغزالي وهو الفقيه الأصولي الكبير يقول :

صارت كلمة الفقه إلى تفريقات الطلاق ، وصور الايمان والعقود المفروضة ووجوه السلم وغير ذلك مما لا يحصل به إنذار ولا تخويف مما كان التجرد

له والاكتثار منه وحفظ المقالات المتعلقة به يقسى القلب وينزع الخشية منه ، صارت إلى هذا بعد أن كانت عنواناً على معرفة دقائق النفس ومفصلات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة مع امتلاء القلب بخوف الله ورجائه .

وكان أبو العباس يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه من علم ولم يشاركونا فيما نحن فيه من عبادة وأخلاق .

ورجال الفقه من ناحيتهم نظروا فرؤوا أن التصوف كلمة عامة غير محددة بالحدود التي تتحد بها العلوم ، وأن المحراب الصوفي قد امتلأ بطوائف شتى من بينها الدخيل والأصيل .

كما شاهدوا بأعين فرعة جزعة المتصوفة وهم يكونون لأنفسهم علوماً ومعارف من إلهامات الروح ومعارج القلوب ، وأنهم قد ابتدعوا فنوناً في المحبة الإلهية وما تحتوى عليه هذه المحبة من وجد وشوق وجذب وفناء وسر وأسرار ، ومبتكرين أيضاً ألواناً أخلاقية في الذكر والخلوة والمناجاة ومثاليات تطوف حول عبادات أوجبوها على أنفسهم فوق الفرائض والنوافل مقيمين من ذلك كله دستوراً ضحماً يدور حول أمراض القلب وأدويتها ، وخفايا النفوس ووساوسها ، ومجالات الروح وإلهاماتها .

وكل هذا بدا في نظر الفقهاء أو في نظر أكثرهم ابتداعاً في الدين ، وانحرافاً عن الحياة المثلى ، وتمرداً على ما اصطلحت عليه العقول في بناء الحياة الدنيا .

وأخطر من هذا المظهر الديوى بينهما ، فقد آمن رجال الفقه بأنهم وحدهم سادة الجماهير . وأنهم وحدهم سادة الدين وحراس نبعه المقدس ، وليس لغيرهم أن يرتدى ثوب الدين وقداسته هذا الثوب . وليس لغيرهم أن يقول في الدين برأى أو يلقى في مشكلاته بدليل أو حجة .

ومع إيمان الفقهاء بهذا فقد انتزع المتصوفة الجماهير من قبضة الفقهاء وتزعموها دونهم ، واحتفظوا بهذه الزعامة على التاريخ رغم ما بذل في سبيل هدمها وزلزلتها .

وكان هذا وحده كفيلاً بأن يركى نار الخصومة . وأن يلهب الحقد في قلوب الفقهاء فيعلنوها حرباً قاسية على التصوف والمتصوفة . حرباً استغلت فيها كافة الأسلحة من التكفير كما حدث في عنة التصوف الكبرى التي تعرف في التاريخ ، بمحنة غلام الخليل ، حيث قدم الدوت . أبو علي الدقاق . وأبو الحسين النوري وغيرهما من أئمة التصوف باسم الكفر والزندقة .

إلى الدس الرخيص لدى الأمراء والملوك بدعوى حماية العرش وتدير المؤامرات كما حدث في مأساة الحلّاج ونكبة المهروردي .

إلى القتل الغيلة في جناح الظلام كما حدث للناوي تلميذ الشمراني الأكبر وصاحب الكواكب الدرية في طبقات الصوفية .

ورغم تلك الخصومة العادة التي حملها جبهة الفقهاء للتصوف والمتصوفة كان أئمة الفقه جميعاً ، من المتصوفة خلقاً وعملاً وحباً بلا استثناء مما يجعلنا على الاعتقاد بأن أساس الخصومة دينياً لا دنيئاً .

كان أبو حنيفة فقيهاً صوفياً ، وكان الشافعي يرسل دقائق المسائل للفقهية إلى أبي حمزة الصوفي ويقول علمنا يا صوفي ، وكان يقول : استفدت من الصوفية طول صحبتي لهم سنين . قولهم : الوقت سيف إن لم تنطاعة قطعك ، وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر .

وكان أحمد بن حنبل يتفكك تنسكا صوفياً ويأمر ابنه بملازمة الصوفية ليصفوا له دينه ، وقد سئل من الناس : فقال العلماء . ومن الملوك فقال : الصوفية . ومن السفلة فقال : الذين يعيشون بدينهم .

وكذلك كان مالك والليث بن سعد وسفيان الثوري . حتى إن المتصوفة قد أروخوا لهؤلاء جميعا في طبقاتهم باعتبارهم من أئمة النصف ورجاله الأول .

وكذلك كان كبار المتصوفة فقهاء علماء أرخ لهم الفقهاء في طبقاتهم على اعتبارهم من السادة الفقهاء رجال التشريع ، كالجنيد والحسن البصري ومحيي الدين بن عربي والغزالي والشعراني .

فالحقيقة التي تملو على خصومات التاريخ أن النصف والفقهاء توأمان متلاصقان لا يعيش أحدهما بغير الآخر . ووجهان لفكرة واحدة هي الإسلام الذي لا تكمل معانيه تشريعا وخلقا وروحا وجدا إلا باتحادهما .

حتى ليقول أحمد بن حنبل : من تصوف ولم يتفقه فقد تفسق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق .

ويقول الأستاذ آدم منز في كتابه - الحضارة الإسلامية في القرآن الرابع الهجري - :

« رغم خصومة المتصوفة والفقهاء نجد بين العلماء كالشافعية مثلا كثيرا من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة ، ولقد كانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا فقد كانت هي الحركة العلمية التي ضمت أعظم القوى الدينية في ذلك العهد ، »

ثم يقول :

والحركة الصوفية في القرنين الثالث والرابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادئ. أثرت فيه تأثيرا كبيرا وهي : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبي محمد صلى الله عليه وسلم . ولا تزال هذه المبادئ

الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية ، ولعل هذا التفوق الذى ظفرت به المبادئ الصوفية هو سر خصوصية العلماء للمتصوفة .

ويقول الشعراى فى المتن :

« واعلم يا أخى أن غالب الإنكار الذى يقع بين العقهاء والمتصوفة إنما هو من القاصر من كل منهما ، وإلا فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين والعارفون يسلمون للفقهاء ، لأن الشريعة جاءت على مرتبتين . تخفيف وتشديد ولكل من المرتبتين رجال فى حال مباشرتهم للأعمال ، فمن قوى منهم خوطب بالتشديد ، ومن ضعف خوطب بالتخفيف والآخر بالرخص فكما أن موسى عليه السلام كان على هدى من الله فكذلك الخضر عليه السلام ، ولهذا سلم موسى للخضر آخر الأمر لما علم أن للشريعة مرتبتين : مرتبة خاصة بمامة الناس ، ومرتبة خاصة بالعارفين ولا اختلاف فى الجوهر بينهما » .

فقهاء عصر الشعراني

سر الخصومة إذن بين الفقه والتصوف كما يقول المستشرق آدم متز هو التنافس على النجاح بين الجماهير . أو كما يقول الشعراني « إن الجهل هو الذي يحرك الخصومة » .

والجهل والصراع على الدنيا كما طابع الفقهاء أو أكثرهم في عصر الشعراني ، ولهذا واجه الشعراني أكبر المعارك التي عرفها التاريخ بين الفقهاء والمتصوفة .

جاء الشعراني والأزهري في عصر من عصور جموده وانحداره ، فقد خبأت تلك الشعلة المتقدة التي ظلت تضيء في الأزهري قروناً متعاقبة . وانطفأت المصاييح التي كان الأزهري يفخر بها ويباهي والتي كانت السمع والبصر للعالم الإسلامي .

جاء الشعراني والأزهري يعيش داخل كتب الشروح والحواشي التي ألفت في عصور الجمود الفكري والبلادة الذهنية . ويقتات على موائد هذا الماضي من غير أن يكون له تفكير أو رأى أو ما يشبه التفكير والرأى .

كان العصر الذي يظل الأزهري هو عصر الشروح والحواشي التي لا تنتهي إلى غاية ولا تهدف إلى فكرة محددة . فكان العلماء يتناولون المتن الذي وضع من قبل فيضيفون له الشروح والتعليقات . ثم يأتي بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق وهكذا حتى يخرج الكتاب عن موضوعه بل كثيراً ما تحولت الشروح والحواشي إلى موضوعات لا تمت إلى الأصل بسبب بل لا تمت إلى العلم بنفسب .

ولهذا ساد الأزهر ركود على لم يعرفه من قبل وتحول الأزهر إلى مدرسة للفلسفة والجدل حول تفرعات واقتراضات فقهية أبعد ما تكون عن جوهر الفقه وروحه .

وبذلك قضى الفقهاء على الروح الإسلامى الذى قام فى الأزهر لإعلاء كلمته واكتفوا بالشرح والاعراب ودراسة أوجه القراءات القرآنية وحيل الفقهاء الشرعية .

وجاء الشعرائى وهو ليس منهم يقرع أسماعهم بالفارعة الكبرى وبهاجمهم فى جودهم المقدس ويزلزل مأذن الأزهر فوق رؤوسهم ويؤلب الجماهير عليهم ويدفعها إلى تقدم والخروج من سلطانهم .

ناعياً عليهم ابتعادهم عن الأخلاق الدينية فضلاً عن العلم ، وتخليهم عن فضائل النفس وطهارة القلب ، مذكراً لإياهم بالآية القرآنية (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) .

ثم يقارن الشعرائى بين طريقتهم فى العلم وبين طريقة التصوف وبين موقفهم من القرآن الكريم وموقف المتصوفة فيقول :

(فالمتصوفة علموا أن المراد من العلم وتلاوة القرآن الاتعاظ والزجر والتخويف وأنهم يسألون عن كل مسألة علموها ولم يعملوا بها

ولذلك كان أهل الله غائبين عما يقصده غالب القراء بقراءتهم لما هم فيه من الخشوع عند التلاوة فلم يوقم مع لسواه . فلم يشغلوا أنفسهم بالقراءات والاختلاف فيها لأن فيها يضيع العمر ، والاتعاظ يحصل برواية أبى عمرو مثلاً ولم يقدر أحد من السلف أن يقرأ بجميع هذه الروايات .

فرقة تمد وفرقة تضخم وفرقة ترقق وغير ذلك من وجوه الأداء الذى برع فيه رجال الأزهر .

بل كانوا علماء لله والله عاملين صائمين قانتين زاهدين خائفين فلم يكونوا مقتصرين على حفظ المسائل فقط بل كانوا عاملين بها .

لم يصرفوا حياتهم في علم القراءات ووجوهها وإنما اتجهوا بقلوبهم إلى ما في القرآن من مواضع وتهديدات وتحذيرات وآيات بينات .

ويضرب الشعراي لذلك مثلاً فيقول :

« كالذي أرسل إليه السلطان كتاباً يأمره وينهاه بأمر كثيرة فأخذه وقبله وصار يدرس ألفاظه ليلاً ونهاراً بالمد والامالة والنفخيم والترقيق ثم أرسل إليه السلطان ينظر ما فعل في الأوامر والنواهي فوجده لم يفعل شيئاً منها وهو على هذه الحالة ، فهل هذا مراد السلطان ، وهل هذا فعل من له قلب أو عقل ؟ »

ثم يقول الشعراي منهكاً بهم لأنهم يدرسون ولا يعملون :

« وهل يقول للملكين في القبر وللزبانية على جهنم : دعوه لأنه كان يحفظ أبواب المعاملات أو يحفظ أبواب الفقه والنحو والاصول على ظهر قلبه أو يقرأ بالمد والامالة والنفخيم والترقيق كلا والله لا يكرم بشيء من ذلك إنما يكرم بالتقوى والعمل الصالح ومعرفة الله عز وجل وكف الاذى عن جميع الآثام ومن شك في ذلك فسيراه يقيناً » .

ولقد خصص الشعراي الفصول الطوال في كتبه للحملة على الفقهاء الجامدين بل خصص كتاباً كاملاً لهذا الغرض مركزاً حملته الكبرى على الجانب الاخلاقي الايماني الذي فقد في الازهر .

يقول المستشرق - فولرز في دائرة معارف الدين والاخلاق . إن

(١) آداب العبودية ص ٩٣ .

(٢) آداب العبودية ص ٩٧ .

الشعراني في كتابه البحر المورود كان جريئاً في مهاجمة الفقهاء والتنديد بطمعهم وزهوهم والتشهير بمشعهم وتهاقهم على الوظائف ، ،
ويقول — نيكسون — إن الشعراني كان لسعة عليه بالدين يحارب الفقهاء بسلامهم ولذلك نجح في حملته التي تركت أكبر الآثار ، ،

وحملة الشعراني على الفقهاء من رجال الأزهر الذين لم يتخلقوا بالآداب الإسلامية ، ولم يقوموا بواجبات العلم الديني . ولم يتفقهوا حقاً روح الفقه الإسلامي تشغل جانباً كبيراً في جهاده في سبيل بناء الفكر الإسلامي من جديد

وهي حملة نشأت عنها أحداث كبرى أنرت إلى أبعد مدى في حاضر الأزهر في أيامه وما تطور إليه بعد ذلك .

فقد انقسم الأزهر إلى فريقين : الفريق الأول يناصر الشعراني ويؤيده ويدعو بدعوته ويطالب الأزهر بتحقيق رسالته . أما الفريق الثاني فقد أعلنها خصومة مرة حادة أحاطت بالشعراني ولاحتته حياً وميتاً .

بل لقد كانت حملته سبياً في تلك الشائعات الكاذبة التي أحاطت بالشعراني ولم تفارقه إلى يومنا .

بل أخطر من هذا كانت السبب المباشر لمؤامرة طامدا أصابت رجال التصوف ، وهي مؤامرة تشويه كتب الشعراني بالدس والتزييف فيها .

ولا عجب في هذا فقد زيفوا كتباً على الشعراني في حياته . وزيفوا مقدمة لبعض كتبه بين سمعه وبصره مما سنعرض له بالتبيان والتفصيل .

ثورة الا زهر

على الشعراى

نظر الفقهاء إلى الشعراى : نظرهم إلى زنديق مارق ، فقد تجرأ على قداستهم واستطال على مكائهم . وتهكم بعلومهم ومعارفهم . وأخطر من هذا أنه انتزع زعامة الجماهير من أيديهم وظفر وحده دونهم بالكلمة النافذة والمكانة العالية لدى الأمراء والملوك فى مصر واستانبول معاً .

واذن فالحرب بينهم وبينه من جانبهم ، معركة على الحياة ، بل معركة على البقاء ، ومعارك البقاء لا تعرف اللين ولا الهوادة بل هى الحرب الشاملة بكل ما فيها من قسوة ، وبكل ما تملك من أسلحة كريئة وغير كريئة .

والفقهاء دائماً فى حروبهم مع المنتصوفة ومع غير المنتصوفة ممن يدخلون فى دائرة المنافسة : يستعملون سلاحاً رهيباً أمتحن على التاريخ فأثبت كفاءته وأثبت أنه السلاح الحاسم القتال .

وهذا السلاح ، هو سلاح التكفير والمروق من الدين . والدين لديهم مرن مرونة عجيبة ، مرونة تسمح بأن يقدموا الدليل على كفر من أبغضوا ، ويقدمون نفس الدليل على إيمان من أحبوا ، والسر كل السر فى التأويل اللولى المطاط ؛ والتلاعب البارع بالألفاظ والمقدمات .

وأعجزهم مع الشعراى حتى هذا الدليل المطواع . فالشعراى كما قدمنا كان صوفياً على الجادة الوسطى وإنهج المحدد كالصراط ، لا يسبح السبح الفلسفى ، ولا يرسل الكلم المنجح . ولا يعرف اللفظ الذى يحمل الوجهين

ولا يطلق قلمه في مقامات الفناء واستغرافات المحبة وسبحات الوجد ،
وإذن فيلجأوا إلى الدس في كتبه ، ولعمدوا إلى الاقتراء ونسبة ما لم
يقل إليه .

ومهدوا لمركبتهم بالتحالف مع أدعياء التصوف من جهلة الأئمة
المارقين لأنهم وإن كانوا خطراً على الدين والأخلاق ، فلا خطر منهم على
العلماء والفقهاء .

وئارت الفتنة الكبرى . وأعلنت الحرب في الأزهر على الشمراني
فزيّفوا مقدّمه كتابه ، كشف الغمّة ، وضمنوها كفريات سخيفة لا تصدر
من عاقل أو مؤمن .

ودسوا في كتابه البحر المورود ، وهو الكتاب الذي هاجمهم فيه -
تعاليم تخالف ظاهر الكتاب والسنة ، بل دسوا عليه وجوهاً من العبث
لا تتفق مع وقاره وصلاحه ، وضروباً من الأعمال المأجنة الساذجة لا تليق
بعلمه ومكانته وأرسلوا هذه الكتب المزيفة إلى الحجاز وتركيا لمكانة
الشمراني فيما ، بعد أن أذاعوها في مصر والأزهر .

ثم لجأوا إلى السلاح الآخر الذي يتقنه الفقهاء والذي برعوا فيه مع
التاريخ وهو تحريض الولاة والحكام على المنصوفة ، فحرضوا سلطان مصر
وخليفة تركيا على الشمراني بدعوى خطورته على الأمن والنظام والدولة
والسلطان والخليفة .

يقول الشمراني : ^(١)

« وما من الله به على صيرى على الحسدة والأعداء لما دسوا على في كنى

• (١) المنى الكبرى جزء ٢ ص ١٩٠ .

كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفنون على زوراً وهتاناً ومكاتبهم في لباب الساطان ونحو ذلك .

واعلم يا أخى أن أول ابتلاء وقع لى في مصر من نحو هذا النوع . أنى لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة زور على جماعة مسئلة فيها خرق لإجماع الأئمة الأربعة وهى أنى أقبت بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة . قالوا وشاع ذلك في الحج وأرسل بعض الأعداء مكاتبات بذلك إلى مصر ، فلما وصلت إلى مصر حصل في مصر رج عظيم حتى وصل ذلك إلى أقليم الغربية والشرقية والصعيد وأكابر الدولة بمصر ، فحصل لأصحابى غاية الضرر ، فارجمت إلى مصر إلا وأجد غالب الناس ينظر إلى شذراً فقلت ما بال الناس وأخبرونى بالمكاتبات التى جاءتهم من مكة .

ثم يقول الشعرانى :

« ثم أنى لما صفت كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود وتسارع الناس إلى كتابته غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض أصحابى واستعاروا منه نسخة وكتبوا لهم منها بعض كرايس ودسوا فيها عنائد زائفة . ومسائل خارقة لأجماع المسلمين ، وحكايات سخريات عن حجبى وإن الراوندى وسبكوا ذلك في غضون الكتاب في مواضع كثيرة . ثم أخذوا تلك الكرايس وأرسلوها سوق الكنبيين في يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم . فنظروا فى تلك الكرايس ورؤا اسمى عليها فاشتراها من لا يخشى الله ثم داروا بها على علماء الجامع الأزهر فوقع بذلك فتنة كبيرة . ومكث الناس يلوثون فى المساجد والأسواق ويوت الأمراء نحو سنة . »

ثم يقول الشعرانى :

« إن عليا باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله وفيه

فطلع بعض العلماء يشفع فيه فلم يقبل . فأتوا إلى فطلعت للبasha فأكرمني وقبل شفاعتي . وقال لي لا تكلف خاطرك قط إلى طلوع القلعة وأرسل لنا ورقة فقط فبلغ ذلك الحسدة فاجتمعوا وزيفوا على مسائل في العلم كاذبة ، وأضافوا إليها أموراً منفرة لعلي باشا ثم رفعوها إليه . فلما قرأها قال : أما المسائل المتعلقة بالشريعة فذلك راجع إلى العلماء ، وأما غير ذلك فلا أقبله فيه أبداً ، وإنما رجعت في أمره إلى قلبي . فأرسلوا إليه قصة ثانية وثالثة فزقها وشاع في مصر أن الباشا يحب فلانا . فقال الحسدة قد صار أهل مصر مع الشرعائي وكذلك الوزير فاكثبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان .

فكتبوا فيه قصة خلاصتها أن شخصاً في مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق وكثرت أتباعه ويخاف على المملكة منه والمستول من صدقات مولانا السلطان فنيه من مصر .

ورشوا بعض الوزراء ليحملها إلى باب السلطان فحملها إليه وقبضاته إلى الشيخ عبداللطيف أمين الدين فتني عنى كل هذا وقال : إن القصة كلها زور على الرجل الصالح .

محاولة قتل الشرعائي

فشلت مؤامرة الفقهاء لدى والى ولدى الخليفة ، كما فشلت حملة الافك والدس والتشهير داخل الأزهر وخارجه .

فقد انتصر للشرعائي في الأزهر طائفة من أئمة العلم وأولى المكانة في الدين في طليعتهم شيخ الاسلام زكريا الانصارى ، وشيوخ المذاهب الأربعة في الأزهر الفتوح الحنبلى ، وناصر الدين اللقاني ، وشهاب الدين أحمد ، وشهاب الدين الرملى .

كما استطاع الشرعائي أن يظهر للجماهير براءته مما دس عليه ونسب إليه

بتقديمه لأصول كتبه : فازدادت مكاتبه لديهم وازدادوا له حباً .

فإذا بقي خصومه بعد هذا . لقد لجأوا إلى السلاح الثالث والآخر . سلاح الغيلة والقتل . فرصدوا له في الطرقات من يفتك به . ودسوا له السم كما دسوا بعد ذلك لتلميذه الأوكبر المناوى ، وذهب المناوى شهيد تديرهم ونجى الله الشعرائى مما دبروا وقدروا .

وأخيراً تحطمت أسلحة خصومه جميعها ولم يتحطم الحقد في قلوبهم فأتوا أمراً إذاً عجباً يدل على الماراة القاتلة التى يحملونها للشعرائى .

أقد أشاعوا نبأ موته كذباً ليذهبوا غيظ قلوبهم .

يقول الشعرائى : وما وقع لى أن بعض الأفران فى الأزهر غلب عليه الحسد حتى أشاع عنى فى الجامع الأزهر وغيره أنى مت . وقال : أخبرنى جماعة ثقات أن فلاناً مات فجأة وأرسل بذلك كتباً إلى دمياط والمحلة والاسكندرية ، (١) .

وذهب خصوم الشعرائى . وبقي الشعرائى حياً خالداً فى كتبه وآثاره التى ترشد الناس إلى دينهم وتعلمهم مكارم الأخلاق وترفع بهم إلى محارب التقوى والإيمان .

الشعراني وعلماء الكلام والتوحيد

«إن الحق لم تدع في قلوب
العارفين للتأويل باباً»
(الجنيد)

جاء في كتاب أعلام الموقعين .

« وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المسلمين
وأكل الأمة إيماناً ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل
الاسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة ،
كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلاً ، ولم يحرفوها عن
مواضعها تبديلاً ولم يبدؤوا شيئاً فيها بطلاً . ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم
يدفعوا في صدورهم وانجازها ، تلفوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان
والتعظيم ،

ذلك هو نهج صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الذين تأدبوا
بأدب رسول الله الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

لا يعرفون جدلاً ولا حواراً في أسماء الله جل جلاله وصفاته . ولا
يقرون بحثاً فلسفياً في القضاء والقدر ، ولا يرضون عن نزاع يقوم حول
نسبة الأفعال إلى الله أو نسبتها إلى عباده .

فإن كل هذه المسائل من علم الله الذي لا تدركه العقول ، وعلم الله الذي
اختص به لأجناد للعقل البشري فيه ، ولا ينبغي التطلع إلى أسرارهِ وخوافيه
فاذا حاول العقل البشري أن يتخطى حدوده ضل وفسق عن أمر ربه
والتقى بنفسه إلى تيه لا هدى فيه ولا نور ولا دليل مبين .

وهذا هو ما حدث لكل الفرق الإسلامية التي حاولت أن تجادل في علم
الله ، وأن تتناول إلى القدس المغيب ، لتدرك أسرار القضاء والقدر ،

أو لتتبدى إلى حقائق الذات والصفات ، وأفعال العباد ومقام العبد منها وأثر الله جل جلاله فيها .

ضلت هذه الفرق ولم تهتد لأنها حاولت أن تنال الاعلى بالأدنى ، وأن تلمس السر الإلهى بمداركها البشرية .

وضل مع هذه الفرق المنطقيون ورجال الكلام وعلما التوحيد ، لأنهم افترضوا للإيمان وابتكروا للمعرفة صوراً وألواناً لا يقوم الإيمان إلا بها ، ولا تكمل المعرفة إلا بمحذوها .

وهى صور وألوان ابتدعوها وافترضوها لا يقرها القرآن ولا تعرفها السنة . بل ولم يعرفها صحابة رسول الله ولم نجعل بعقولهم وإنما تسربت إلى الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية الوثنية الملحدة .

يقول الصلاح الصفدى فى شرح لامية العجم : إن المؤمن لما هادن صاحب جزيرة قرص كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فجمع الملك خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا بطريق واحد فانه قال جهزها إليهم فادخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدها وأوقعت بين علمائها ،

ويقول ابن الجوزى فى تلييس ابليس^(١)

« وكيف لا يذم الكلام وقد أفضى بالمعتزلة إلى قولهم — إن الله عز وجل يعلم جل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها — وقال جهم . علم الله وقدرته وحياته محمده ، وقال أبو على الجبائى ، وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين ، المعلوم شئ وذات ونفس وجوهر وياض وصفرة وحمرة ، وإن البارى سبحانه وتعالى لا يقدر على جعل الذات ذاتاً ، ولا العرض

عرضاً ، ولا الجمهور جوهرأ ، وإنما هو قادر على إخراج الذات من
العدم إلى الوجود . .

وقال النظام : إن الله عز وجل لا يقدر على شيء من الشر وإن ابليس
يقدر على الخير والشر . .

ويقول أبو الفرج معقبا على تلك السفطة الجدلية الفارغة : أعوذ بالله
من نظر وعلوم أوجبت هذه المذاهب القبيحة . .

وكان أبو الوفاء بن عقيل يقول : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا
الجوهر والعرض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكفر . وإن رأيت أن
طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر ، فبئس ما رأيت . .

لقد دفع رجال الكلام وعلماء المنطق والمتأثرون بهم من المعتزلة وغيرهم
بالأمة الإسلامية إلى شكوك ومجادلات وضروب من البحث العقيم باعدت
بينهم وبين الايمان ، وباعدت بينهم وبين روح الاسلام وباعدت بينهم وبين
العبادة لله ، والعمل الصالح للحياة .

ووقف المتصوفة وحدهم على الجادة الكبرى ، والطريقة المثلى ، يؤمنون
بالقدر كما جاء به القرآن وكما علمهم الرسول ، ويؤمنون بأسماء الله جل جلاله
وصفاته المقدسة كما أسماها وكما وصفها القرآن وكما نطق بها السنة ، من غير
تأويل ولا تعليل ولا تعطيل ولا تمثيل ، لأن الايمان يجب أن يكون بما
أنزل الله من الألفاظ والمعاني ، لا بما أوله العقل ، وابتدعه التصور ،
وتخيله المنطق .

ويقول محيي الدين : ومن العجب ان الله تعالى يخبر بشيء عن نفسه في
كتابه المحكم فيأتى الانسان بعقله القاصر ، فيقول إن عقلى يرد ذلك وفكرى

لا يحتمل ذلك وإنما يجب التأويل ، وليس عاقبة هذا التأويل إلا أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالفاً غير ما في كتاب الله ، ^(١) .

ويقول الامام الغزالي « إن من أشد الناس غلوا واسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم . ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر .

لقد ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولا وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين » ^(٢) .

ويقول الخلاج « من لا يعرف شمرة من بدنه كيف تبت سوداء أم بيضاء كيف يعرف مكون الأشياء ؟ ومن لا يعرف المجمل والمفصل ولا يعرف الآخر والأول ، والتصاريف والعلل ، والحقائق والحيل ، لا تصح له معرفة من لم يزل ، .

ويقول الشعرائي « وما من الله به على حفظي عن الخوض في معاني آيات الصفات وأخبارها من منذ وعيت على نفسي ، وقل من سلم من مثل ذلك ، وهذا من أكبر الذنوب التي يقع فيها العلماء ولا يشعرون .

نرى أحدهم يخوض في الكلام على الذات وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار وقيام الليل والخوف من الله تعالى ونحو ذلك . حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

وكان يقول « جميع المعبرين والمتولين والمتكلمين في علم التوحيد لم يبلغوا عشر معشار معرفة ادراكه حرف واحد من حروف الهجاء ، .

ويقول الشعرائي « وما من الله به على إيمانى بأن أفعال العباد خلق الله تعالى في حال

(١) الفتوحات الجزء الأول .

(٢) كتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة ص ٧٩ .

إضافتها إلى العباد معا في آن واحد ، وهو من أصعب الأمور لأنه إن بطريقتين متناقضتين ، فاشهد بعين بصيرتى في مثل قوله تعالى — وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى — ان الرمى لله تعالى في حال كونه للعبد لا على التعاقب ، ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى عينيّن ينظر بهما إلى النسبتين حتى يخرج عن الحيرة فان صاحب المين الواحدة لا يقدر على الخروج من الحيرة في هذه المسئلة أبدا .

وقد حجب إلى أن أوضح لك هذه المسئلة بما لا تجده في كتاب من كتب المتكلمين فأقول وبالله التوفيق .

اعلم يا أخى أن العقل يقصر عن فهم مسألة خلق الأفعال من غير اشكال ولا يخرجك عن الاشكال فيها إلا التسليم المطلق بما قال الحق ، أو أن تترق في المواد الكونية وأنت صاعد حتى تنظر إلى الحق تعالى بقلبك وهو يخلق المخلوق الأول الذى لم يتقدمه مادة ، فانك تجد الحق تعالى فاعلا وحده لا شريك له ، ثم تنزل في الفروع إلى أسفل مع مشاهدة سريان القدرة الإلهية في كل من أضيف إليه فعل من الخلق فتجده لا يقدر على فعل إلا بامداد القدرة الإلهية له .

ومن هنا انفتح باب الاشكال لعدم تخلص الفعل حينئذ في الشهود البصرى لله وحده ، أو للخلق وحدهم . ووقع الخطأ ، فن أضاف الأفعال كلها إلى الله تعالى حسنها وقيبحا ، قال له لسان الغيرة الإلهية ، قل كل من عند الله بما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، فان نسبة الأفعال إلى الخلق نسبة إضافة واستناد ، لا نسبة خلق وإيجاد ، ومن أضاف الأمور الحسنة كلها إلى الله تعالى وأضاف القبيحة كلها إلى الأكوان ، قال له لسان الجود الإلهى أيضا قل كل من عند الله . لا تكذبا له بل ثناء جيل . كما نضيف نحن ما قبح من الأفعال بما لا يوافق الأغراض ولا يلائم الطبع إلينا

مع علينا بأن الكل من عند الله . ولكن لما تعلق به لسان الذم فدينا ما ينسب إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدبا مع الله تعالى ، كما أننا نضيف ما كان من خير وحسن إلى الله تعالى و نرفع نفوسنا من الطريق حتى يكون الحق تعالى هو المحمود وحده أدبا معه تعالى .

فالذى يجب اعتقاده ، أن الله تعالى خالق أفعال العباد وإنها مكتسبة لهم وإن حجة الله تعالى قائمة عليهم وأنه لا يشل عما يفعل ، ولا يطلب الوصول إلى الغاية في ذلك فلسنا مكلفين بها مع صعوبة مراقبها .

أجل أننا مكلفين بالخوض في كل ما يتعلق بذات الله وقضاء الله وقدره فإن هذه المسائل هي سر الحياة الأكبر ، وسر الحياة فلا يعلمه إلا الله فليس لنا من الأمر إلا التسليم والايان بما أمر الله وبما ورد في كتاب الله .

عن أبي هريرة قال ، خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال أهذا أمرنم أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم بين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا .

وسأل رجل علي بن أبي طالب عن القدر فقال . طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر . فقال بجر عميق لا تخلص فيه فقال . يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر . فقال سر تخفي الله لا تكشفه ، فقال . يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، فقال إن الله تعالى خلقك كما يشاء أو كما شئت ، فقال كما شاء قال . إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، قال كما شاء ، قال ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئة الله أو دون مشيئة الله . أما إن قلت مع مشيئته أدعيت الشراكة معه وإن قلت دون مشيئته استغنييت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

وبذلك أحال على رضوان الله عليه سائله إلى مجال القدرة الإلهية ومشاهدها . فكانت تلك الاحالة أبلغ الاجوبة وأعظمها لمن يفتد الايمان واليقين .

وبدون تلك الاحالة لا يفهم القدر . وبدون تلك الاحالة يتحول القضاء والقدر إلى جدل لفظي لا يثبت الايمان ولا يعرف اليقين وإنما يدفع إلى الشكوك الأوهام وإلى ماهو أبعد من الشكوك والأوهام .

الجن والأرواح والعوالم غير المنظورة

يقول غاندى

« إن العقل شئ عظيم حقاً ، ولكنه يصبح غولاً كريهاً إذا أدعى لنفسه أنه قادر على كل شئ ، يحيط بكل شئ ، وإن نسبة هذه القدرة إليه نمط ردى من الوثنية ، فالعقل عند هؤلاء العقليين وثن بعيد ، كما يبعد الوثني حجراً أو نصباً ، ويعتقد فيه أنه إله .

وهذا خطأ الحضارة الغربية الأكبر ، فقد آمنت بالعقل وجحدت ما سواه وعاشت تحت ظلال وثنية عقلية هي أخطر ألوان الوثنيات وأشدّها اذلالاً وأهداراً للقيم الإنسانية العليا .

والعقل الذى عبدته الحضارة الغربية شئ عظيم حقاً فى عالم الحس والمشاهدة لأنهما مجال العقل وموضع تجاربه وآياته ، أما ما وراء ذلك فلا شأن للعقل وما ينبغى له .

ولهذا كانت الحضارة الغربية شئ هائل عظيم رهيب فى الماديات وفى كل ما يخضع للحس والمشاهدة ويقوم على البحث والتجربة ، بينما تأخرت وتعترت تعترأ مضحكا فى المعنويات والاخلاقيات والعبادات ، وفى كافة ما ينصل بعوالم الروح والإلهام والوحى والإيمان ، لأنها عوالم فوق الحس والمشاهدة .

والإنسان لو اقتصرت حياته على الحس والمشاهدة فحسب ، لما كان أكثر من حيوان كبير ، لأن الحس والمشاهدة هما مرتبة الحيوان الذى لا يصدق إلا ما شاهده بعينه ولا يعرف إلا ما وقع عليه حسه

أما الإنسان الذى أسجد الله له ملائكته ونفخ فيه من روحه . فقد وهب مع النفخة الإلهية خصائص روحية عليها هى سره الأكبر وهى حياته المثلى ، وبذلك الخصائص يدرك الإنسان أشياء فوق الحس والمشاهدة ، وتلك الخصائص ترتفع معارفه فوق معارف الحس والمشاهدة إرتفاعاً يؤهله لتذوق المعارف الإلهية ، وتسموه إلى جلاء أسرار مكنون الأكران والاطلاع على عجائب ما أبدعت القوة الإلهية من عوالم منظورة وغير منظورة .

والعلم المادى الذى تعبد به أوروبا ومن يعيش فى ظل حضارتها فى أمريكا وآسيا قد ابتدأ نفسه ينكر للعقل الذى ابتكره وابتدعه ، قد ابتدأ يعترف بأن السكون ملىء بأسرار وعلوم ليس فى طاقة العقل أن يدركها لأنها فوقه فلا سبيل إليها إلا بوحى من الله أو بالهام من عالم الروح .

وفى العلامة اثنتان عند درج صغير فى أسفل مكتبه وقال : إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي .

ويقول البقرى : نبوتى . لنا إلا كأطفال فى جزيرة على شاطئ بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من القواقع على حين أن الجواهر النفيسة فى قعر البحر ،

ويقول الباقية الفرنسى : يو . إتنا لا نشاهد إلا ما يظهر لنا من العلم فى الخارج ، وقد حجب عنا ما هو أعجب وأغرب . لعمرك قل لى من ذا استطاع أن يفهم سر طيران الذباب ؟ وسر ألا عيب الفراش ؟ نعلم شيئاً عن تركيبها الجسمى وقابليته ، ولكننا عاجزون عن رؤية الحكمة التى أمرت بها ونظمها ، لى أمام مشهد الوجود أعتى نفسى جاهلاً .

ويقول : كاميل فلا مريون . — ما هو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقابية فى إنتاج نتيجة مادية ؟ كيف يوصل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ كيف يدرك هذا العقل . ؟ أين مستقره . ؟ ما هى الطبيعة ؟

ما هي طبيعة العمل المخفى ؟ لن يستطيع أكبر رأس أن يجيب على أحقر
أستلقى ،

تلك أقوال جبابرة العقول في الحضارة الغربية تبرهن أن نهاية العقل
البشرى هي العجز عن إدراك أسرار الكون . وأن أكبر الجهل أن نكر
ما في الكون من آيات الله ومعائب الخلق بدعوى أنها أشياء فوق العقل
والتصور .

لا بد للإنسان أن يرتد صاغرا ذليلا إلى عالم الإيمان والروح ، أن
يرتد مؤمنا بقوة فوق عقله ، وبعوالم فوق ما يدرك بالحس وما يعرف
بالمشاهدة ، فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون . .

اضطررنا إلى هذه المقدمة ، لنبرهن على أن كل ما يتعلق بالعوالم غير
المنظورة ، كالجن والملائكة والأرواح يجب أن تخضع عقولنا حيالها إلى
ما جاء به الوحي ، لأننا بالعقل وحده نضل في فهم الروحانيات والغيبيات .
ولنبرهن أيضا على أن الذين هاجموا المتصوفة في أحاديثهم عن صلاتهم
بالجن ، وصلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين ، قد انحرفوا عن الحق ، لأن
الأديان السماوية في جانب المتصوفة لا في جانب هؤلاء الوثنيين العقليين .

والشعراني في طليعة المتصوفة الذين تحدثوا عن صلاتهم بالجن ، وعن
صلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين ، بل لعله أكثر المتصوفة حديثا عن عالم
الجن وعالم الروح .

ولهذا كان نصيبه من حملة العقلين ، أكبر من غيره من رجال التصوف
الروحانيين .

لقد رموا الشعراني بالكذب والدجل ، وبالشعوذة وبالشعبية العامة
وبالتخريف والتخيل الساذج وما إلى ذلك من نعوت وألقاب يجيدها الذين
ألهوا العقل وانكروا ما فوق الحس والمشاهدة .

يقول المستشرق العقلي (شاخت) في حديثه عن الشرعاني : « إنما مع اعترافنا بخصوصية انتاجه نرى ضرورة الاعتدال وعدم الاسراف عند تقدير عقلية ، لأننا نراه يؤمن إيماناً عميقاً بالقوى الخفية وما أكثر مراعاة بصدد ما وقع له مع الأرواح والملائكة والجن والكرامات والخوارق ، فإن كتبه حافلة بهذه المزاем . »

ويقول المستشرق (ماكدونالد) في الفصل الذي عقده عن اتصال الأولياء بالجن في الاسلام : « إن هذه الظاهرة إذا كانت مألوفاً في العالم الاسلامي ، فإنها لا تبدوا أوضح مما نراها عليه عند الشرعاني الذي كان على اتصال دائم بها لها الخفي غير المنظور . »

ويجري الدكتور زكي مبارك مع المستشرقين في الفصل الذي كتبه عن الشرعاني في كتابه - التصوف الاسلامي - فيرى الشرعاني بالكذب الساذج ، ويصف عقلية بالهيمية ، لأنه يتحدث عن الجن وعن اتصاله بهم . . . ويعقد الدكتور توفيق الطويل فصلاً في كتابه عن الشرعاني تحت عنوان - التفسير السيكولوجي لكذب الشرعاني - جاء فيه .

إن ما يرويه الشرعاني عن نفسه من اتصال بالأرواح وتعامل مع الجن قد يغري بالشك ويدفع إلى تكذيبه ، كما كان الحال في موقف الدكتور زكي مبارك منه ، ولكن نفهم الشرعاني في ضوء المنطق العقلي وحده يبدو لنا ضلالاً مبيناً لأن الرجل كان طوال حياته يعيش في جو ديني مشبع بالتصوف استمد منه غذاء عقله ، وأشبع به جوع قلبه ، ومن هنا كان لابد من النظر إلى نزعات نفسه وتيارات فكره في ضوء هذا الجو النفساني . وقد انتهت به حياته إلى إيمان عميق مفرط هيمن على منطق العقل في تفكيره ، وتنادى الاسراف المعلن في هذا إلى ما يسميه علماء النفس بالمدرجات الخاطئة والأوهام المجسمة فتصور وجود أشباح مجسمة لم يكن لها وجود

إلا في وهمه ، وبهذا انقلبت الحقائق في نظره أو اختلق الكثير منها اختلاقاً فبدت الأشياء التي لا تتضح في عينه ، أشباحاً للجن أو الأرواح ، أو كانت هذه من خلق تصوره لأنها تسير نزعات قلبه ووساوس نفسه وتلتئم مع الجو المعنوي الخفي الذي يستغرقه ومن السهل على من يكون كذلك أن يمثل الجن في خاطره فتبدو صورها في ناظره أو تتحول صور الأشياء لأشباحاً للجن والعماريات .

فإن حدثنا عن وقائع مع سكان هذا العالم الخفي قلنا أنه مخدوع وليس بخداع ولا كذاب ويمثل هذا تفسر أحاديثه عن تعامله مع الجن وأرواح الموتى^(١)

والآن فلنتظر ما سبب كل هذه الحلة على الشعرائي . روى الشعرائي في المنن ، أن مؤمنى الجن كانوا يحضرون دروسه العلمية ، وأنهم أحياناً كانوا يدخلون عليه ليلاً في منزله فيصرون معه ويسبحون معه على سبخته ، وأن بعض شباطينهم عابث يوماً أثناء مقامه بمدرسة أم خوند فكان يطفئ مصباحه ويزعج أولاده ، فكان له حتى إذا ظهر قبض على رجله ، وأخذت رجل الجن ترق حتى أضحت كالشجرة في يده^(٢)

وأرسل إليه بعض الجن من المشتغلين بالعلم أسئلة في قرطاس يحمله أحدهم في فمه وقد تشكل في صورة كلب أصفر اللون ، وفي مقدمة الأسئلة : ما قول علماء الانس في هذه الأسئلة المرقومة لأنها أشكلت علينا وسألنا عنها مشايخنا من الجان . فقالوا إن هذا التحقيق لا يكون إلا عند علماء الانس ، وقد أجاب عنها الشعرائي في كتابه القيم كشف الحجاب والرائع وجه أسئلة الجان .

هذه هي خلاصة حوادث الشعرائى مع الجن . فلنعرضها على وجهة النظر
الاسلامية لنرى هل تطابق أم تخالف .

والاسلام صريح فى وجود الجن وفى أنهم أمم أمثالا منهم الصالح ،
ومنهم الشقى ، وإن طائفة من الجن استمعت إلى القرآن الكريم وآمنت به .
بقى بعد ذلك محور الصراع . وهو صلاتهم بالانسان . وهل هي جائزة
أم مستحيلة . وهل صاحبها كاذب أم صادق .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« وكلى رسول الله بحفظ زكاة رءضان فأتانى آت يحثو من الطعام فأخذته
فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال إني محتاج وعلى
عيال ولى حاجة شديدة . قال غلبت عنه فأصبحت . فقال النبي صلى الله عليه
وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة . فقلت يا رسول الله شكاك حاجة
شديدة وعبالا فرحته غلبت سبيله . قال أما إنه قد كذبتك وسيمود ، فعرفت
أنه سيمود بقول النبي صلى الله عليه وسلم فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام
فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال دعنى فإنى
محتاج وعلى عيال لأعود فرحته غلبت سبيله . فأصبحت فقال لى رسول
الله يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة . فقلت يا رسول الله شكاك حاجة
وعبالا فرحته غلبت سبيله . قال أما إنه كذبتك وسيمود . فرصدته الثالثة
. فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهذا آخر ثلاث مرات . إنك تزعم أنك لا تعود . فقال دعنى فإنى أعلمك
كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هي . قال إذا آويت إلى فراشك فاقرأ
آية الكرسي : الله لا اله إلا هو الحى القيوم : حتى تحتم الآية فإنه لن يزال
عليك من الله تعالى حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، غلبت سبيله .
فأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل أسيرك البارحة . فقلت

يارسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله تعالى بها غلبت سبيله . فقال ما هي قلت قال لي : إذا آويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية - الله لا إله إلا هو الحي القيوم - وقال لن يزال عليك حافظ من الله تعالى حتى تصبح ، ولن يقربك شيطان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم . أما إنه قد صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة . قلت لا . قال : ذا شيطان .

والحديث صريح صراحة لا لبس فيها ولا إبهام في أن الجنى حادث أبا هريرة وجادله ونافسه وعله أيضاً آيات من القرآن تحفظ الإنسان من الجن .

والحديث صريح أيضاً صراحة لا لبس فيها ولا غموض بأن أبا هريرة قبض على الجنى ليرفقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن الرسول يسأل أبا هريرة قتلاً — ماذا فعل أسيرك البارحة — .

وروى أحمد والترمذي من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال لعائشة أتدريين ما خرافة . إن خرافة كان رجلاً من عذرة أمرته الجن في الجاهلية فكث فيهم دهر أطويلاً ثم ردت إلى الإنس . فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من العجائب . فقال الناس حديث خرافة .

وفي السير أن الشيطان صاح في عسكر الصحابة يوم أحد . ألا إن محمداً قد مات فترك جماعته من الصحابة القتال فضحك عليهم .

بل إن الفقهاء قد وضعوا أصلاً الجن بالإنسان قواعد فقهية وصلت إلى حد أن تناول الفقهاء أحكام الزواج المختلط بين الإنسان والجان .

جاء في حاشية ابن عابدين . بكتاب النكاح « أن الحسن البصري أجاز الزوج بجمية دون العكس » .

وجاء في كتاب « أسى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب » أن الدجال أحد أبويه جنى .

وفي القرآن الكريم يانا وإيضاحا . لوحى الشياطين للإنس ووحى الإنس للشياطين ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم لبعض زخرف القول غرورا .

وفي القرآن أيضا يانا وإيضاحا لأعمال الوسوسة والصرع والمس التي ترتب على صلة الجن بالإنس .

وجاء في القرآن الكريم في قصة سليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات أعمالوا آل داود وشكرا وقليل من عبادى الشكور » .

وهي آيات كريمة دلت لا على الصلة بين الإنس والجن فقط . بل على أن الجن قامت بأعمال مادية للإنسان ، فصنعت له المحاريب والتماثيل والجفان والقدور الراسيات .

(الجن وتحضير الأرواح)

وقد مثل الامام محمد عبده عن تحضير الأرواح فقال « لقد حضرت في أوروبا مؤتمرا يجمع أكابر هذا الفن فحضرت أرواح كثيرين وبعضهم عن أعرافه قبل وفاته . ورأيت ذلك مطابقا لما علمت عن هؤلاء الناس فسألتهم . وكلهم اتجهوا إلى ليسمعوا سؤالى . فقلت لهم إن رأى في هذا أنه عمل من أعمال الجن . وناقشتم مناقشة جسيدي في هذا الموضوع إلى أن تحديتهم بإحضار روح المصطفى عليه الصلاة والسلام لأسأله عن الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ولأتين بلاغه وفصاحته في منطقه إذا تكلم في ذلك الوقت

وكثير من المستشرقين الحاضرين يمكنهم الحكم على ذلك . وليقن بأن النبي محفوظ من أن يمثل الشيطان بصورته ويؤدى ما يؤديه . علمت أنى سأفوز عليهم فلم يلبثوا أن عجزوا جميعاً معتردين بأن هذه روح عالية لا يمكن احضارها ومن ذلك يتبين جلياً أن هذا عمل من أعمال الجن . .

وبهذا تتحد الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية مع منطق الواقع والمشاهد فهل بعد هذا بيان لمن ينشد الحق .

وهل خرج الشعراى فى صلاته بالجن عن نطاق القرآن والأحاديث والواقع المشاهد .

وهل عقلية الشعراى ساذجة متوهمة كما يقول الدكتور الطويل وكاذبة خادعة كما يقول المستشرقون والدكتور مبارك .

أم أن عقولهم هى الأجدر بهذا الوصف . وإن كانوا أطلقوه فى باطل ونطقه نحن هنا فى حق صراح .

الشعراني المفترى عليه حيا وميتا

يقول الشعراني . إنه ما كان عظيم قط في عصر من العصور إلا وكان يلزمه ملازمة الظل خصوم وحدة ، يملئون الجو حوله صباحا وجدا ، ويشعلون النار فوق رأسه حقداً وحداً .

وبستشهد الشعراني على ذلك بما وقع الأنبياء كافة ثم لكبار الصحابة وعظماء الرجال في مختلف الأمم والشعوب ، ليتلى الله عباده وليتميز الخبيث من الطيب ، ولتتحن الأعواد الانسانية الصلبة ومقدار قدرتها على البقاء والخلود .

وقد أصاب الشعراني ما أصاب أسلافه من مصاييح الانسانية وأعلام الهدى والإيمان .

فقد ملأ خصومه الدنيا حوله حقداً وحداً ، واقتراء وكذباً كما أوضحنا في الفصول السابقة ، حتى أذاعوا نبأ موته تشفياً وحقداً .

يقول الشعراني ، وكان حمادي يحرفون عن مسائل لم أقل بها قط ثم يكتبون بها أسئلة ويستفتون عنها العلماء فيفتون بحسب السؤال ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي من ذلك أجور لا تحصى من كثرة الوقوع في عرضي ينير حق ،^(١)

ولا تزال الأجور التي لا تحصى تلاحق الشعراني في الدار الآخرة ، فالشعراني الذي إفتري عليه خصومه في حياته لا يزال الاقتراء يلاحقه ويتابعه وهو في مقامه عند ربه .

وإن كان خصومه في حياته دفعهم إلى الاقتراء عليه الحق والحسد ،

فإن خصومه اليوم يدفعهم إلى الاقتراء إما التأثير بما قال أسلافهم القدامى ، وإما الجهل بما قال الشعراء نفسه .

وهذا باب كبير يكاد يحتاج إلى كتاب خاص ولكننا نجتزئ هنا بمنال واحد من أبشع مانسب إلى الشعراء .

نسبوا إليه أنه قال في المتن إنه بنى بزوجته في قبة البدوى ، وأطلق الدكتور زكى مبارك لسانه وألفاظه الضخمة القاسية تعقيا على هذه الحادثة البذعة الرعناء .

والدكتور زكى مبارك ومعه رجال الاستشراق قد أخطأوا في اتهامهم للشعراني في البديهييات ، أخطأوا كما يخطئ التليذ الصغير الساذج في فهم الكلام الواضح المبين فيحرف الكلم عن مواضعه ويخرج المعنى عن أهدافه ومقاصده يقول الشعراني ، ومما وقع لى مع سيدى أحمد البدوى أنه جاءنى ودعانى أيام خروج الناس من مصر إلى مولده . فلما ذهبت إلى (طندناه) صار كل من دخل القبة يبدأ بالسلام على قبل زيارة الشيخ حتى استحييت منه ، وكانت أم ولدى عبد الرحمن لها ممي مدة سبعة شهور وهى بكر . فجاءنى وقال لى إختل بها فى ركن قبى وأزل بكارتها ففعلت ، فطبخ لى طعاما وحلوى . فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به فى تلك الليلة ^(١)

ذلك قول الشعراني ، وهو أوضح من فلق الصباح فالقصة كما هو واضح قصة منامية جاءه السيد البدوى فى الرؤيا ودعاه لزيارة مقامه فى طنطانم طلب منه فى منام تالى أن يخل بزوجته التى لم يدخل بها رغم مرور سبعة أشهر على زواجه بها فى ركن قبته ثم يقول الشعراني فى لفظ عربى مبين — فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به السيد فى تلك الليلة — أى أن الشعراني دخل زوجته فى مصر عقب عودته إليها تنفيذا لما رأى فى منامه .

والبنامات عند المتصوفة مقام كبير يحتذون في ذلك سنة رسول الله
صلوات الله عليه فقد جاء في كتب الصحاح أن النبي كان إذا أصبح يقول
لإصحابه «من رأى منكم رؤياه يعنى أعبرها له» .

والشعراني يقول في كتبه إنه كان ينبه في المنام على الأمور التي تقع ، كما
كان ينبه على أحواله ومقاماته وذنوبه وأخطائه من باب التأديب والتعليم
بالرمز والإشارة .

والشعراني بنى بزوجته كما يقول ومضى عليها معه سبعة أشهر وهي بكر
لم يدخل بها . فنبه فناما على خطئه ووجوب الدخول بها وكان مرشده في
الرؤيا هو السيد البدوي .

أو لعل الشعراني كان في حالة نفسية حالت بينه وبين الدخول بزوجته
فكان المنام الذي رأى سبباً في إصلاح تلك الحالة النفسية أو العقدة النفسية
وعلى أى معنى من هذه المعاني فقد صرح الشعراني بأنه لما عاد إلى مصر
حصل ما أشار به السيد في المنام . أى أنه دخل بزوجته في مصر لا في
قبة البدوي .

وبذلك تنهار تلك الانفصصة المسرحية التي نسجوها حول الشعراني .
وما أكثر ما نسجوا حوله من أفاصيص وأساطير .

صلاته بالملوك والوزراء

يحدثنا الجبرتي، وابن أبياس، والشعراني، وعلى مبارك، وهم مؤرخوا مصر في العصر التركي عن لون الحياة في المدن والقرى المصرية، وعن لون الحكم الذي فرضه الأتراك على مصر حديثاً عجيباً يخلع القلب ويذهل العقل فلقد خضعت مصر خلال الحكم التركي لأقسى أنواع العذاب البربري الحمجي إذ تولى أمورهاحكام طفلة جبابرة، وزاد من بشاعة جبروتهم جهلهم الفاضح، واستهترهم بكل المقدسات الانسانية .

كانت مصر خلال هذا الحكم العسكري الدكتاتوري تعاني الظلم والفساد ونشأ عن الظلم والفساد في البيئات الحاكمة انتشار الجهل والفقر والمرضى في ربوع الأرض الطيبة والوادي ذى الزرع والخير العميم .

واختل الأمن وفقد الناس السلامة في كل شيء . فابقي للبال أو الدين أو الحياة قيمة أوكرامة .

يقول الجبرتي « وقد كان من عادة امروق العسكرية اتركبه أن تشارك أصحاب الحرف في مكاسبهم ، فيمضي الجندي معهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويلبسه في المحل ويصبح شريكه في أرباحه ، (١) .

ثم يقول واصفاً للفوضى العامة الشاملة « وكان التاجر لا يكاد يستنقر في منجره حتى يسمع الناس يتصايحون ويتسابقون في العدو وسرعان ما يحبسها فنة قد شبت نارها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فراراً .

ويقول صاحب المناقب متحدثاً عن الفلاح والقرية المصرية : وكان الفلاح في قرينه معرضاً لنوع آخر من الفزع والجزع ، كان القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه بدفع الضرائب والأدوات فإن عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالا بالمقارع والكسارات وعصر الرأس وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس ،^(١)

ويقول ابن أبياس واصفاً للباشيرين الذين أذلوا الشعب المصرى وهبوا أمواله : « كان المباشرين كالملوك يتصرفون في أمور الدولة بما يشاءون وليس على يدهم يد ،^(٢) » .

وكان أخطر ما عانى الشعب المصرى فوق ذلك أن العلماء كما يقول المؤرخون مشوا في ركاب الطغاة من الحكام والولاة وغدوا لهم بطانة وحاشية فزادوهم ظلماً وعدواناً ، وأسبغوا على ظلمهم وعدوانهم ظلاً كاذباً من الدين ؟ ! !

وبقي المتصوفة وحدهم يحملون مشاعل الجهاد ، ويصرخون في وجه كل جبار : قف من أنت .

ورجال التصوف عرفوا دائماً بانتفاضهم على الظلم والظالمين ، لأنهم ارتفعوا بحياتهم فوق الرغبة والرغبة ، وسموا بإيمانهم فوق ما يذل الناس من شهوات وفوق ما يخيف الناس من جبروت .

أو كما يقول على مبارك متحدثاً عن موقف المتصوفة من جبروت الولاة الأتراك : ولكن هذا الجبروت كان ينحل أمام زعماء المتصوفة .

(١) المناقب السكبرى ص ١٢١ .

(٢) ابن أبياس جزء ٣ ص ١٨١ .

ولقد تركزت قوة التصوف خلال هذا العهد في زعيم النصف الشعرائى وبذلك تمثلت في الشعرائى مقاومة الشعب المصرى وتمرده على الظلم والظالمين واستطاع الشعرائى بإيمانه وشخصيته وجهاده أن يمثل سلطة الشعب وأن يرد العدوان عنه وأن ينتزع له حقوقاً من ظالميه .

مثل غاندى عن السر فى أن الإنجليز لم يستطيعوا أن ينالوا منه أو يخضعوه لسلطانهم مع ضعفه وقوتهم فقال : يرجع ذلك إلى سببين ، الأول أنى لا أملك شيئاً يستطيع الإنجليز أن يأخذوه منى فحرصا عليه أخضع . والثانى أنى لا أطعم فى شئ . يستطيع الإنجليز أن يمنعوه عنى وطعماً فيه أخضع . .

وكذلك كان موقف الشعرائى من جبايرة الأتراك ، لا يمد عينه إلى ما لديهم من متاع وجاه ، ولا يحرص على شئ فى الحياة .

ويحذرننا الشعرائى عن نفسه بأنه كان لا يقبل مالا أو هدية من حاكم ، فإذا ألحوا عليه تقبل المال بيده وطوح به على مرأى منهم ومشهد من الناس . بل لقد رفض أن يلتبس له أحد الوزراء معونة الخليفة فى تركيا وكانت فى ذلك الوقت شرفاً أى شرف وأملاً أى أمل .

وكان الشعرائى فى تواضعه يتكبر على المتكبرين ، ويتعالى على هؤلاء الجبارين ليحفظ كرامة إيمانه وكرامة شخصه وكرامة وطنه .

قال له الوزير الأعظم على باشا عند ما عزم على الرحيل إلى تركيا : إننا مقربون إلى الخليفة فهل لك حاجة عنده ؟ فأجابه الشعرائى فى عزة المؤمن : ألك حاجة عند الله ؟ إننا مقربون إلى حضرته .

وبتلك العزة الإيمانية يرى الشعرائى أن الملوك فى طاعته لأنه فى طاعة الله وفى مصالح عباده ، يقول الشعرائى :

، تشفعت عند السلطان الغورى ، والسلطان طومان باى وخابرك وغيرهم من بشاوات مصر فقبلوا شفاعتى وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لى ، (١) .

وبنك العزة الإيمانية غدا الشعرانى المحامى الأول عن الشعب المصرى ، أو كما يقول : ، وما من الله به على كثرة قبول شفاعتى عند الأمراء ولا أعلم الآن أحدا فى مصر أكثر منى شفاععة عند الولاة ، فربما يفنى الدست الورق فى مراسلاتهم فى حوائج الناس فى أقل من شهر .

وارتفعت مكانة الشعرانى بدفاعه عن الشعب وبإيمان الملوك والوزراء بأنه رجل فرف الاغراء وفوق المادة وفوق وظائفهم وفوق ما يستعبدون به الناس وقد امنحوه مراً وجهراً فأرسلوا له الأموال والخيرات فردها عليهم فأعادوها سرا فأزداد اعتصاماً وإصراراً .

وعرضوا عليه الوظائف والهبات من الخليفة فأبى أن يأخذ مالا من حاكم أو حتى أن يأكل من طعامه . لأن فى ذلك ما يחדش عقيدته ، وما يחדش رسالته .

وطارت شهرة للشعرانى بأنه رجل كرامات وآيات وأن من يعصى له أمراً ينكب فى ماله أو جاهه أو حياته .

ويحدثنا صاحب المناقب عن إيمان جبابرة الترك من الولاة والوزراء بكرامات الشعرانى وقوته فيقول : فقد ترتب على هذا الخوف أن الولاة كان إذا زارهم الشعرانى أسرعوا إليه يقبلون يديه ويتبركون به ويجلسون على الأرض بين يديه ويسارعون إلى قضاء أوامره وشفاعاته .

ويقول لنا صاحب المناقب أيضا إن الأمراء كانوا يلتزمون منه أن يوصى بهم خيرا أينما اتجهوا في أرجاء الامبراطورية التركية حتى إنه كتب مرة يوصى العجم والروم بالأمير جاتم الحزاوى ، كما كان يولى القضاة والمحتسبين وكبار الموظفين ويرجع إليه في كل أمور الدولة صغيرها وكبيرها .

بل إن على مبارك ليعحدثنا عن خوف الامبراطورية التركية كلها من الشرعائى ومسارعتها إلى إرضائه إفتاءً لفضبه ،

ويكفى للدلالة على مكانة الشرعائى ما يرويه لنا أيضا على مبارك من أن أحد الولاة تعرض لذرية الشرعائى بعد وفاته . فتسامع السلطان فى تركيا بأنباء هذا العدوان مع أن أحدا من ذريته لم يرفع شكواه إليه . فأرسل السلطان بكف العدوان عنهم وهدد من ركب رأسه فى مناوأتهم باعتباره طريد القانون وأندر بأهدار دمه جزاء عناده .

حتى الموت لم يستطع أن يحجب نفوذ الشرعائى . لأنه نفوذ قام على الإيمان والعقيدة . وكل ما يتصل بالإيمان والعقيدة خالد لا يفنى .

الزعيم الروحي - والشعبي

في الشعراني تمثلت خصائص الزعيم الشعبي المكافح على أكمل ما تكون هذه الخصائص من قوة نفسية متمردة على الظلم ، وقوة بيانية تثير العواطف وتلهب الحس ، وفوق هذا وذاك الحاسة الشعبية الساخرة التي تشعربا حاسيس الجماهير وتفاعل معها حتى كأنها منها ، وهي تقودها وتهيمن عليها .

وفي الشعراني تمثلت خصائص الزعيم الديني الملمهم على أوضح ما تكون تلك الخصائص من قوة إيمانية لا يرهبا الظلم ولا ينال منها الاغراء ، وقوة أخلاقية لا تلين للشهوات ولا تميل مع الأهواء ، وفوق هذا وذاك ذلك السحر الصوفي الأخاذ الذي يضئ على صاحبه حالات القداسة وأضواء الحب والإجلال .

وقل بين رجال التاريخ من جمع بين هاذين اللونين من ألوان الزعامة . فلا غرو إذا رأينا الشعراني يظفر بين معاصريه بالقيادة العامة التي لا تطاؤها زعامات ولا تدنو منها مقامات .

ولقد كان موقف الشعراني في وجه القوة التركية بمخلافى الولاة والوزراء البداية الحقيقية لبناء الشخصية المصرية المستقلة التي توارث طويلا تحت حكم المماليك والأتراك حتى وجدت في الشعراني فجرها وصاحبها ، فتركزت حوله آمالها وأمانها وأخذت تتكون حوله شيئا فشيئا أولى المجموعات الشعبية المصرية بخصائصها وعيذاتها لتأخذ دورها التاريخي الذي تجلى مشرقا غلابا خلال حملة نابليون على مصر وما تلاها من أحداث .

وحول الشعراني أيضاً تركزت الآمال في نهضة دينية تعيد للدين شبابه الأول وقداسته السابقة وحرارته الإيمانية التي أضففتها أحداث التاريخ . ونال منها جود العلماء وجهل الجماهير .

وكان من زكاة هذه الزعامة الشعبية أنه أعرض عن الوظائف الحكومية لأنه نأثر ولأنه زعيم قائد، والوظائف الحكومية دائماً تنال من ثورة الزعيم كما تنال من مكانته .

وكان من علامات النجاح لهذه الزعامة الدينية أنه ابتعد زاوئبه عن الأثر وبذلك أنقذها من الجمود الفكري والجدل اللفظي الذي خيم عليه في تلك العصور ، كما حرر أتباعه وتلامذته من أساطير أدياء التصوف ومباذهم ليرتفع بهم إلى جوهر الدين وليمود بهم إلى صفاته الأولى وانطلاقه العلمي وجهاده العملي وغايته المقدسة التي تهدف إلى خير الإنسانية بتلقينها أسس المبادئ الأخلاقية وأنبئ الفضائل الاجتماعية .

وجهاد الشمراني الديني في سبيل تحرير العقول الإسلامية من الجمود والأساطير لم يشغله يوماً عن جهاده الشعبي في سبيل إنقاذ الجماهير من ظلم الولاة واستعباد الأمراء .

وبذلك ربط الشمراني بين الدين والدنيا ، وأحيا الصلة التي لا تنفصم بين رسالة الإسلام التبعدية العلمية ورسالته السياسية الشعبية .
هاجم الفقهاء وأدياء التصوف باسم الدين وباسم الجماهير الإسلامية ، وكافح الولاة والأمراء باسم الدين أيضاً ولحساب الكتلة الشعبية ، لأن هدف المجاهد الإسلامي والقائد الشعبي هدف موحد مشترك .

يقول الشمراني : هاكم السادة العلماء الواحد منهم عدة وظائف ، هو واعظ في المسجد ، وموظف في الحكومة وطبيب للعائلة ، ولا يقوم بإحدى هذه الوظائف على الوجه الذي يرضى الله . بل هي سبيل للدال الحلال أو الحرام ، لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لتفرغ لخدمة الناس كافة ،

ولا ينسب هذا النقد العنيف للعلماء الذين كان واجبهم الأول هو إرشاد

الناس لاجمع المال من أوجهه الحلال والحرام ، أن يوجه قلبه إلى نقد الظالمين من الحكام الذين أحالوا حياة الفلاح المصرى إلى جحيم لا يطاق . يقول الشعراى :

« كان الفلاح عند موته فى أحلك الأيام السابقة يترك شيئاً من الدراهم لأولاده ولكنه الآن بفعل الظالمين من الولاة لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، هو يبيع الحاصلات والبقرة والثور لتسديد ما عليه من الضرائب وإذا لم يتمكن من تسديد ما عليه سجن مع زوجته وأولاده ،

ومن أجل تلك الصورة الصارخة لحياة الفلاح المصرى المؤلمة نذر الشعراى نفسه للجماد فى سبيل المظلومين كلية . وأكياً يقول الشعراى : لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لتفرغ لخدمة الناس كافة ولقد ظل الشعراى إلى آخر نفس له فى الحياة مجاهداً لا تلمن له قناة ولا تخفض له راية ولا تزلزله أحداث ولا ترهبة قوى ، إنه مجاهد فى سبيل الله فلا يخشى سواه . شعاره دائماً كلته العالدة : لو انقضت الناس جميعاً من حولى ، واهتزت شعرة منى فقد كفرت بالله . »

الشعراني

رجل المثالية الخلقية

وبعد فإن كان الشعراني كزعيم شعبي ، وكجهاد صوفي قد شاركه في الجهاد والزعامة كثيرون من رجال التاريخ ، فإن الشعراني كما أو من يفرد بخلق إنساني رحيم كريم مثالي لا أظن أن غيره يبلغ مبلغه عمقاً وإيماناً .

كان الشعراني بحق رجل الأخوة الإنسانية على أدق معاني تلك الأخوة ولهذا كان يشارك بوجدانه بل بكل أحاسيسه المظلومين والمحرومين يشق لشقايتهم ويتألم لألامهم : يقول الشعراني : إني لا أشعر بشعور المذنبين والمظلومين حتى لكان كل عذاب أو ظلم وقع بأحد من الناس وقع بي .

وكان الشعراني يرى أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا شارك الناس كافة في أحزانهم وآلامهم لأن الإنسانية وحدة متماسكة خيرها مشترك وعذابها مشترك يقول :

« من ضحك أو استمتع بزوجه أو لبس ثوباً مبخراً أو ذهب إلى مواضع المنزهات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء »

وكان الشعراني رحيماً بالناس ، ورحيماً بنوع خاص بالعصاة والمذنبين لأنهم أشد الناس ضعفاً وأحوجهم إلى العطف والنصح والرحمة . يقول متحدثاً عن مبادئه

« ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية فإنهم أشقى الناس حيثئذ »

ويقول « ثم كثرة رفيق ورحتى لمن شكا إلى كثرة محبة للعاصي لأنه مريض . ثم غيرتني على أذني أن تسمع زورا ، وعينى أن تنظر محرماً ولساني أن يتكلم باطلا »

وتتمد رحمة الشعراني إلى الحيوان الأعجم لأنه ضعيف مسخر للإنسان .
ثم كثرة شفقتي على دابتي وكراحتي أن أحمل سوطاً .

بل لقد كان الشعراني يرى أن العبادة لا تصلح إلا بصلاح القلب ونقاء
الأخلاق فكان لا يقوم إلى الصلاة إلا إذا فتش قلبه هل فيه غل أو حقد
أو حسد أو نجيمة أو شهوة صغيرة أو كبيرة بل كان يستحي أن ينام وفي
قلبه شيء من هذا لأن النوم رحلة الروح إلى الملأ الأعلى

ويستطرد قائلاً ثم أخذى كل كلام وعظت به الناس في حق نفسي أولاً
وفي حق الناس ثانياً واستغفاري من ذلك ثالثاً ثم عفوى العام عن كل شيء .
إلى ، ثم كثرة اهتمامي بحمل هموم عدوي قبل اهتمامي بهموم صديق ،
ويسمو الشعراني في أدب النفس ويرتفع في معارج الأخلاق فيقول
وما أنعم الله به على عدم خروجي من بيتي إلا إذا علمت من نفسي القدرة
بإذن الله على هذه الثلاث خصال : تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى
منهم ، وجلب الراحة لهم ،

فإذا كملت هذه الثلاث ارتفع الشعراني درجة بل درجات فيضع
- الطالبسان - على وجهه ليكف بصره عن فضول الناس .

تلك الكلمات المضيفة ، الكلمات الروحية الصافية التي تملأ بالذل
والشرف ، هي بعض خلق الشعراني ، وإنه لخلق يرفعه درجات ودرجات
فوق علمه وزعامته . . .

طه عبد الباقي سرور نعيم

٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٧٢

١٩٥٢/١٢/٨

بعض مصادر الكتاب

العقاد	غاندى	الشعرانى	ألمن الكبرى
محي الدين بن عربى طه عبد الباقي سرور		•	الطبقات الكبرى
التصوف الإسلامى - زكى مبارك		•	العهد المحمدية
التصوف فى مصر - توفيق الطويل		•	تنبيه المغترين
الشعرانى	توفيق الطويل	•	اليواقيت والجواهر
صفوة الصفوة	طبع الهند	•	كشف الغمة
الطواسين	ماسنيون	الغزالى	إحياء علوم الدين
كشف الظنون	حاجى خليفة	•	التفرقة بين الإيمان والزندقة
وفيات الأعيان	ابن خلكان	الطوسى	اللمع
صحيح البخارى	البخارى	أبو طالب المحكى	القوت
صحيح مسلم	مسلم	القشيري	الرسالة القشيرية
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع		للمنارى	الطبقات الكبرى
الهجرى	آدم منز	المقرئى	خطط المقرئى
حلية الأولياء	أبو نعيم	محي الدين	الفتوحات المكية
مفتاح السعادة	طاش كبرى زاده	ابن الجوزى	تلميس إبليس
حجة الله البالغة	الدهلوى	ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون
بمجموعة تراث الإسلام		ابن القيم	أعلام الموقعين
الخطط التوفيقية	على مبارك	ابن تيمية	الرسائل
بدائع الزهور فى وقائع الدهور			دائرة المعارف الإسلامية
ابن إياس			شرح لامية المعجم الصلاح الصفدى

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	بين يدي الطبعة الثانية	٨٩	التصوف يرى من وحدة الوجود
٦	الآفاق الأعلى	٩٣	مقام الفناء وأخطاء الحلوليين
١٧	نشأته وحياته	٩٩	مقام الفناء وابن تيمية
٢٢	الشعراني في القاهرة	١٠٣	جهاز الشعراني
٢٦	الشعراني طالب العلم		السبحات الفلسفية والتصوف
٢٨	الشعراني في طريقه إلى الله	١١١	الشعراني وأدعاء التصوف
٣٣	شيوخه في الطريق	١٢٤	موقف الشعراني من المتصوفة
٣٧	الشعراني والخواص		العاطلين
٤١	الشعراني في مدرسة خوند	١٢٨	الشعراني وفقهاء الأزهر
٤٣	الشعراني والخليفة	١٣٥	فقهاء عصر الشعراني
٤٦	زاوية الشعراني	١٣٩	ثورة الأزهر على الشعراني
٥١	إلى الملأ الأعلى	١٤٤	الشعراني وعلماء الكلام والتوحيد
٥٢	رسالة التصوف	١٥١	الجن والأرواح والعوالم غير المنظورة
٥٩	التصوف الإسلامي والمعارف العالمية	١٥٨	الجن وتحضير الأرواح
٦٢	الطريق الرباني والمعارف الإلهية	١٦٠	الشعراني المقترى عليه
٦٩	هل تتعارض المعارف الصوفية مع القرآن والسنة	١٦٣	صلاته بالملوك والوزراء
٨٠	التصوف المقترى عليه	١٦٨	الزعيم الروحي والشعبي
		١٧١	الشعراني رجل المثالية الخلقية

مَطْبَعَةُ مَكْتَبَةِ مَدَنِيَّةِ